الدموع الخرساء

محمد عبد الحليم عبد الله



محمد عبد الحليم عبد الله

الدموع الخرساء

الناشر
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

هذه المجموعة القصصية :

هذه هى المجموعة القصصية العاشرة لمحمد عبد الحليم عبد اللّه ، لكنها ــ بخلاف المجموعات التسع السابقة ــ يثير نشرها عدة تساؤلات لم يثرها نشر المجموعات السابقة . لقد نشر محمد عبد الحليم عبد اللّه فى حياته ثمانى مجموعات قصصية واثنتى عشرة رواية . أما المجموعة التاسعة « جوليت فوق سطح القمر » فإنها وإن نشرت بعد رحيله عن دنيانا إلا أنه كان قد أعدها للنشر قبيل وفاته . كما أن روايته الثالثة عشرة « قصة لم تتم » وإن لم يكن قد أتمها ولا وضع عنوانها إلا أنه كان من الواضح ــ لو أن القدر أمهله ــ أنه سينشرها بعد إتمامها كما فعل مع كل رواية كتبها ما عدا أولى رواياته « إبريسم » . كذلك حرصت أسرته أن تجمع ما سبق نشره مبعثرا فى الصحف والمجلات فى غير باب القصة وأن تنشر ما وقع اختيارها عليه فى ثلاثة كتب هى :

(لقاء بين جيلين) ويضم مجموع الأحاديث التى أجراها محمد عبد الحليم عبد اللّه مع كبار أدباء عصره لينشرها فى مجلة القصة حين كان أحد المشرفين على تحريرها .

(قضايا ومعارك أدبية) وقد ضم بعض مقالات محمد عبد الحليم عبد اللّه التى أدلى فيها بآرائه فى بعض القضايا الأدبية العامة التى كانت تشغل الوسط الأدبى إذ ذاك ، وكان بعضها ردا على أدباء أو نقاد تعرضوا لأعماله الأدبية .

(الوجه الآخر) ويضم ما نشره فى الصحف مما يتصل بحياته الخاصة

أو تأملاته فى الحياة بوجه عام .

ولم يثر نشر هذه الكتب قضية لأن المعروف عن محمد عبد الحليم عبد اللّه أنه كان لا يقدم لجمهور قرائه إلا وجهه القصصى . فعدم جمعه هذه المقالات فى كتب لم يكن من باب عدم رضائه عنها إنما كان من باب صرف الجهد كل الجهد إلى وجهه القصصى . وقد سبق لى أن ذكرت فى مقدمة كتاب « قضايا ومعارك أدبية » أن إخراج مثل هذا اللون من المؤلفات بعد وفاة أديبنا وإن كان جديدا على الحياة الأدبية فى مصر ، فإنه عرف متداول فى الغرب حيث لا يقتصر الأمر على تجميع مقالات الأدباء التى نشروها ولم يحرصوا على جمعها فى كتاب ، ولا على ما تركوه من أعمال أدبية ناقصة أو مسودات ، بل وعلى ما لم يكن فى نيتهم نشره مثل الرسائل الخاصة . ذلك لأن حياة الأديب ـ حتى ما بدا منها خاصا ـ لم يعد ملكا له بعد موته . فالتاريخ الأدبى فى حاجة إلى كل حرف كتبه الأديب لأنه يضىء لنا جوانب تظل مظلمة بغير الاطلاع على مثل هذه الكتابات .

أما قصص هذه المجموعة فهى مما نشره محمد عبد الحليم عبد اللّه فى الصحف والمجلات أثناء حياته . ومع ذلك ـ ولأسباب لا نعرفها ـ لم يجمعها فيما جمع من مجموعات قصصية ضمت قصصا نشرت بعد نشر قصص هذه المجموعة . وحين دفعت إلى أسرته الكريمة بهذه المجموعة كنت مشفقا أن تكون قصصا لم يرض عنها أديبنا الراحل ووجدها لا ترقى إلى مستوى إعادة نشرها فى مجموعة . فالنشر فى الصحف عابر مؤقت أما النشر فى كتاب فأبقى أمام الجمهور للحكم على مؤلفه . غير أنى فوجئت بأنها قصص من أنضج ما كتب محمد عبد الحليم عبد اللّه شكلا ومضمونا . وما تزال تشغله تلك العلاقات العاطفية المرهفة بين الرجل

والمرأة ، وتلك العلاقات الأسرية المعقدة بين الزوجة وزوجها والآباء والأبناء .. وما تزال علامة الشك بين الجنسين هى التى تلح على معظم شخصيات قصصه التى بينها تلك العلاقات . وما تزال علامة الشك بين الجنسين هى التى تلح على مسرحه الدرامى الأثير ، وإن أضاف إليها مسارح يجتمع فيها حشد من الناس لفترة عابرة ـ مثل السفينة والطائرة ـ ثم يفترقون بعد أن تناوشتهم العواطف والأهواء . وما يزال أفراد الطبقة الوسطى هم آثر الأفراد لديه وأقدر ما يكون على التغلغل فى نفسياتهم وعلاقاتهم وشكوكهم وطموحهم وإحباطاتهم ... إلخ . أما الشكل الفنى فقد بلغ فيه قمة نضجه ، بحيث تصبح قراءة هذه المجموعة القصصية متعة فنية حقا ، وبحيث لا يملك المرء من التساؤل عما دفع محمد عبد الحليم عبد اللّه إلى حجب هذه القصص عن قراء كتبه ، بل عما إذا كان من حقه هذا الحجب . وهذا هو ما تثيره هذه المجموعة القصصية من قضيه كان الجواب العملى عليها ما قامت به أسرته مشكورة من جمعها ودفعها للمطبعة حيث أن محتواها أصبح ملكا للتاريخ الأدبى .

وهكذا فإنه يمكن تقسيم أعمال الأديب من هذه الناحية إلى ثلاثة أقسام (بعد استبعاد ما لم ينشره لأن الموت لم يمهله) : ما نشره فى كتب مباشرة أو ما نشره فى الصحافة ثم جمعه فى كتب أثناء حياته . ثم ما نشره فى الصحافة و لم يجمعه فى كتب برغم أن الفرصة لذلك كانت متاحة له أثناء حياته . وأعمال وجدت مخطوطة لديه لم ينشرها لا فى الصحف ولا فى الكتب رغم أن الفرصة أيضا كانت متاحة له . هذا بالإضافة إلى ما لم يكتبه إطلاقا بقلمه ولكنه تركه ذكريات وعلاقات لمن يحيطون به . أما العالم الغربى فقد حل هذه القضية نهائيا ، فهم يرون أن الأديب ــ بل كل عظمائهم ـ ملك للتاريخ ، ما نشره وما لم ينشره ، ما كتبه وحتى

ما لم يكتبه . أما نحن فما زالت تقاليدنا تحول دون اقتحام الحياة الخاصة لعظمائنا بل إن عظماءنا أو أقرب الناس إليهم يبادرون بأنفسهم إلى إخفاء أو إزالة كل ما يمكن أن يشير إلى حياتهم الخاصة قبل وفاتهم فلا نعثر على رسالة عاطفية أو مذكرات صريحة . لم يبق إذن إلا أضعف الإيمان وهو أن نجمع فى كتب ما سبق أن ارتضوا نشره بأنفسهم على صفحات الصحف والمجلات ، وهذا هو ما تحققه هذه المجموعة .

ديسمبر ١٩٧٧

يوسف الشارونى

دون جوان الكبير

كنت أول من دخل غرفة الطعام حين دق جرس الغداء بعد أن أقلعت الباخرة من ميناء « مرسيليا » .

وحين قادنى الخادم إلى مائدة فى أقصى اليمين وأومأ إلى الجلوس ، أدركت أن هذا العمل لم يجئ عفوا وإنما كان بناء على ترتيب .

جلست وظهرى إلى الركن وفوق رأسى مروحة كهربائية ، ووجهى إلى الباب بحيث أرى كل داخل . وكانت المائدة صغيرة مستديرة عليها أدوات لخمسة أنا واحد منهم وبقى أربعة ، أشخاصهم وأسماؤهم لا تزال فى علم الغيب ، فوجدت تسلية طريفة فى أن أرقب نوافذ الذين لم أعرفهم وأن أضمن أمن أشخاصهم .

من الجائز أن يكون الأربعة نساء ، ومن الجائز أن يكونوا رجالا ، وجائز أيضا أن يكون الأمر قسمة بين الجنسين .

وأقبل شاب طويل أسمر فحيا وجلس يقرأ قائمة الطعام ، صامتا يختلس النظر إلى الداخلين . فقلت :

واحد ..

ثم وفد شاب قصير أبيض على عينيه منظار حالك كان جميلا يعطيه شيئا من المهابة . ثم حيا وجلس ، وجلست معه كبرياء أكبر من سنه . سنه . فقلت : اثنين .

وبقى اثنان ..

ورأيت فتاتين تعبران الباب والمرح يجرى فيسبقهما ، والخادم يشير لهما تجاه مجلسنا فقلت : تكملة جميلة . لكنهما انحرفتا إلى مائدة قريبة وجلستا تنتظران .

وكان الصمت يغطى مائدتنا كأنه مفرش ثقيل بشكل يبشر بأن أوقات الطعام لن تكون جميلة ، لأن أزهى ساعات المرح والسمر والنجوى والحب تكون بين الناس على الموائد .

وتنهدت فى صمت آسفا من هذه المجموعة ، وتناولت قائمة الطعام أنظر فيها حتى جذبنى مما تشاغلت صوت مرتفع يتكلم صاحبه مع آخر فى الطريق إلى مائدتنا . حتى إذا ما شكل كل منهما مكانه التفت أحدهما وألقى علينا التحية بلهجة متوددة بشوش .

لم يكن أحدهما صغير السن ـ كان كلاهما قد جاوز الخمسين بسنتين على الأقل ـ أما الرجل الذى شغل انتباهنا منهما فقد بدا وكأنه خارج من فوره من حفلة تهريج حيث ترك هناك همومه وانصرف وفى صدره بقايا ن الضحك .

وبعد دقيقة من جلوسه تفحص أدوات المائدة وما عليها ثم جس المفرش باصبعيه كأنه يشترى قماشا ، ثم حملق فينا بفضول تألفه أكثر مما تنفر منه وقال بعد أن أومأ للخادم وأقبل ، وقال موجها حديثه إلينا منصرفا عن الخادم :

ـ أنا من يدعى : سعد الدين الموظف بإدارة شركة « س » بمصر .. وأشار نحو زميله قائلا : وهذا صديقى ..

وقطع الحديث وترك زميله يذكر اسمه ومهنته واستغرق هو يسأل الخادم بإمعان وشهية وعطش عن أجود أنواع الخمور التى توجد عندهم ثم طلب

منه نوعا معينا ، ثم رجع إلينا بانتباهه ليسمع بقية الأسماء .

قال الشاب الطويل الأسمر ذو القوام الرياضى بعد أن ذكر اسمه :

ــ ومهنتى ... محاسب .

فقال الأستاذ سعد الدين وهو يتناول الزجاجة من الخادم :

ــ تشرفنا يا افندم .

وتكلم الشاب القصير الأبيض ذو المنظار الحالك والكبرياء الغزيرة فقال بدلال بعد أن ذكر اسمه :

ــ ومهنتى ... طبيب .

فقال الأستاذ سعد الدين وهو يصب الخمر لنا جميعا دون أن يأخذ رأينا :

ــ تشرفنا يا افندم .

وجاء دورى فتكلمت بصوت خافت ولهجة لها طابع فذكرت اسمى وقلت :

ــ ومهنتى ... صحفى .

فصاح الأستاذ سعد الدين وهو يصب لى مزيدا من الخمر :

ــ أوه ... تشرفنا للغاية .. نشرفنا جدا يا أستاذ . مرحبا بممثل الرأى العام ...

وكان فى لهجته اهتمام وفرح واحترام فى الحقيقة . وحين ضحك بمرح زائد ضحكنا ونحن نحملق فيه .

كانت الموائد متقاربة ، وصوته عاليا لكنه مهذب . ولم تتلف الأيام من وجهه شيئا إلا سلامة عينيه ، فقد كان تحتهما انتفاخ خفيف جعلهما وكأنهما دامعتان .. أما بقية وجهه فقد كانت رائعة .

وكان أبيض مستدير الطلعة ، له شعر سهل فضى ناعم من الممكن أن يسرح بدون مشط : ويبدو أنه كان يزاول الرياضة وقت شبابه فقد كان

عليه آثار منها .. فى المنكبين والصدر وتحت القميص الخفيف . وكان على سجيته فليس فى أعماله تكلف ما ، وسجيته مصقولة عريقة كأنها أحد مصادر « الإتيكيت » .

ولم تكن شهرتى واسعة فى الصحافة لكننى وجدته يعرف عنى بعض ما يعجبنى ، فانجذبت إليه دون أن أشعر بذلك كطبع كل الناس .

وحمل عنا أعباء الكلام فجعل يتكلم وحده ، قال بلهجة تقريرية :

ـ الصحافة مهنة تعجبنى أيها السادة ، ولعلها كانت أولى أمنياتى وأنا شاب .. لكن ..

ثم همس وكأنه انفصل فجأة عن أفكاره وعنا أيضا ، يا لها من حسناء .. هناك على المائدة المواجهة فى أقصى اليسار ، إنها تعجبنى ..

ورجع إلى الموضوع : الحياة السهلة أشبه بالمشى فى الأرض الفضاء وهو لا يروقنى أبدا .

فقلت وكأننى أعترض :

ـ بعض الناس مغرمون بالمتاعب .

ـ المهنة السهلة أشبه بالمشى فى الفضاء ، والمشى فى الفضاء خال من المفاجآت ... لماذا لا تشرب أيها الطبيب ، هل أنت مريض بالكبد ؟ تصور أيها الصحفى أنك تعلم كل ما سيحدث لك حتى نهاية عمرك فأى لون من الحياة اذن ستحيا ؟

فهمهم الرجل المسن الآخر قائلا :

ـ أعوذ بالله ...

واستطرد الأستاذ سعد الدين :

ـ المفاجآت ـ حتى السيىء منها ـ يفتح الشهية للحياة كهذه الألوان التى تقدم إلينا قبل أن نأخذ فى الأكل الحقيقى .

فقالوا بهمس وهم يأكلون :
ــ تمام .
فمال تجاهي والكأس في يده ثم اعتدل وقال للجميع :
ــ تمام ! .. معذرة فردكم لا يعجبني .
وضحك وفمه في الطريق إلى الكأس ، وسأل زميله العجوز في تعجب يدل على البساطة :
ــ لماذا ؟ ..
فأجاب الأستاذ سعد الدين :
ــ أريد نقاشا ، لا تكونوا (موافقين) . النقاش يولد الأفكار .. الحك يولد الحرارة .. الدفع يحرك (الموتور) . لا مؤاخذة إن كلمة (موافق) تسبب لي المرض .. أشعر بعدها بدوار وهبوط وانحطاط في القوى كأنني وقفت فجأة وأنا أجرى . تسقط الموافقة ! ها . ها . ها .
قلت لأثيره :
ــ حتى في الحب يا أستاذ ؟
فضحك مرة أحرى وقال :
ــ مرحى مرحى .. « برافو » يا ممثل الرأى العام . « جود » أيها الصحفى . ها قد « حمى الوطيس » كما يقول المثل العربى . و « دخلنا في الجد » على رأى أولاد البلد .
وفقنا أخيرا ... وجدنا مادة للحديث والرأى والتسلية واللذة ما دمنا سنتناقش في الحب طوال أيام الرحلة .
وامتد بنا الحديث حتى أقفرت كل الموائد .
رأيته بعيني بعد ذلك على ظهر السفينة يغازل كل من يلقاها . كان يتكلم الإنجليزية والفرنسية بطلاقة تدعو إلى المباهاة ، ويتكلم العربية بأناقة شديدة ، وتنسجم نبراته مع إشاراته كما تتوافق الحركات في الرقص

التوقيعى .

وفى أصيل يوم والبحر هادئ يدعو إلى المرح ، وأنغـام حية تنبعث من الراديو كانت تهيم فى الجو ، جلس الأستاذ سعد الدين إلى جوار فتـاة لا تعدو العشرين وأخذ يغازلها .

كنت واثقا أنه سينجح لأنه لم يخفق فى تجربة منذ رأيته ، وكنت منتبها كذلك إلى وجه آخر يراقب حركاته دون أن يشعره ، ولو شعر لاتخذ شيئا من الحيطة .

جلس على كرسى إلى جوارها ونحن على ظهر السفينة ، وسألها بغتة وهو عاقد كفيه على إحدى ركبتيه :

ـ أهذه أنت ؟ .. كيف حالك الآن يا آنسة .. إنه يبدو على ما يرام .

فتلفتت كأنها تستنجد بمن تسأله عن الخبر ثم قالت له :

ـ أشكرك على كل حال .. لكن صحتى لم تتعرض لسوء قط .

ـ آه .. لست أنت التى اغتالها الدوار . هى واقفة عند هذا الكوبرى .. آسف .. إن كنت مخطئا فالسبب واضح . منظارك الأسود هو الذى أوقعنى فى الإشكال و ...

ـ عفوا ، عفوا ... لا داعى للاعتذار .

ـ لكن ...

ـ ماذا ؟

ـ إذا كان يحسن بنا أن نظهر فضائلنا فى المجتمعات العامة ، ألا يحسن بنا يا آنستى العزيزة أن نظهر محاسننا كذلك ... لماذا تغطين الجمال بالزجاج الأسود ؟

وابتسم لها فاحمر وجهها . ولم يكن يعرف أن فى عينيها حولا خفيفا ، وأن الوجه الذى يرقبه من بعد قريب هو لتلك العانس الفرنسية التى

غازلها فلصقت به خصوصا بعدما أخبرها أنه أرمل .

ودق جرس الشاى فأخبرته ونحن نهبط إلى الموائد بحقيقة موقفه ، وأنه قد سبب للآنسة حرجا ربما آلمها . لكنه أكد لنا ونحن نتناول الشاى أن البراعة الحقيقة هى أن يعاون الرجل المرأة على نسيان ما تعتقد أنه من عيوبها . فسأله الطبيب :

ــ وكيف ذلك ؟ .

فأجاب :

ــ كل منا يعرف محاسن نفسه ومواهب روحه على التحديد . فلو أننى مدحت شجاعة أحد القواد ما فعلت إلا ما يفعله عامة الناس ، وإلا ... فبماذا تمدح القائد ؟

فجاء صوت أحدنا يهمس :

ــ صحيح ..

فاستطرد :

ــ وحين يجمع الناس على أمر يصبح الحديث فيه بالنسبة لصاحبه فاترا تماما . فإذا أردت أن تستأثر بانتباهه فقل له شيئا جديدا .

قلت له :

ــ حتى ولو لم يكن صحيحا ؟

فقال متحمسا :

ــ حتى ولو لم يكن صحيحا .. سيثور انتباهه أولا ولو كان مع شىء من السخط أو العجب . لكن إصرارك على ما تقول يترك الطرف الثانى وفى نفسه قابلية لبحث الموضوع ، لأن النتيجة الإيجابية ستكون فى مصلحته ...

ــ هيه ...

ــ وسيتولى هو إقناع نفسه بالميزة الجديدة بالنيابة عنك ، وترتاح أنت ..

لأنها ميزاته هو شخصيا . وبكثير من الخداع الذى فرضته علينا الطبيعة ينقلب عيبه ميزة عنده ، فيعبد من اكتشفها فيه ... يعنى يعبدك .. ها . ها . ها .

قلت أشجعه محاكيا تشجيعه :

ـ مرحى أيها الصديق ! « برافو » أيها العاشق ! « جود » أيها الشاب !

ثم بدا واجما ونحن على العشاء وكان وجومه غير منسجم مع هيئته كالرقص بثياب الحداد . لقد بدا شديد التناقض .

سأله الطبيب :

ـ أستاذ سعد الدين ... ماذا أصابك الليلة ؟.. أنت مريض ؟

فأجاب وهو يفتش هن أدوات المائدة وكأنه لا يرى شيئا منها :

ـ أنا ... أنا دائما مريض غير أنى لا أفكر فى مرضى ...

واستدعى الخادم وطلب منه بصوت خال من المرح زجاجة من النبيذ الجيد وشرع يأكل من المشهيات لكن بغير شهية . فتدخلت أسأله :

ـ هل ضاع منك شيء ؟

فرفع رأسه عن الطبق فجأة وقال :

ـ مرحى « برافو » ... وجود ... أنت جدير بمهنتك أيها الصحفى النابه . لقد اكتشفت منذ ساعة أن شيئا هاما ضاع منى ..

ودخل فى وجومه مرة أخرى ، وسكتنا نخمن ما الذى ضاع منه . لكن ابتسامة رقصت على شفتيه ومال فجأة على المحاسب الرياضى الطويل الأسمر يهمس فى أذنه :

ـ هل أستطيع أن أستعيره منك حتى ننزل إلى الميناء فقط ؟. ليتنى أستطيع .

ـ ما هو هذا ؟

ــ شبابك .. شبابك يا صديقى .

وضحك فى أسف ... ضحك وهو ينظر إلى الشباب منا كأنه يستحثهم على الحياة كما تستحث الجواد الكريم بالغمزة الخفيفة . ثم جرع من النبيذ كثيرا كأنما ليولد الحرارة أو يحرك « الموتور » كما كان يقول ، لكن إشراقه الأول لم يعد إليه .. وسألته :

ــ هل أنت فى حاجة عاجلة الى منحة من الشباب يا أستاذ سعد الدين ؟.

ــ نعم .. لأن الحسناء التى تعرفت عليها فورا محتاجة إلى شباب . يجدر بى أن أقول : « إننى محتاج إلى شباب لأتذوق مزايا الحب الجديد . الحيلة إليهن وسيلة وليست هى كل المتعة ..

سألته :

ــ لكن قل لى : لماذا أنت هكذا ؟ هل قلبك طائر منك باستمرار ... شق عليك عصا الطاعة ؟ . قل لى .

ــ أوه ... لذلك شرح يطول .. تلك قصة حياة رجل بأكملها أو تبع تطور الأفكار والعواطف لرجل ما . خذونى هكذا ظاهرة كالبحر والجبل ... لا تبحثوا عن الأصل حتى لا تفتقدوا المتعة ... هذه هى فلسفتى !

وداعا ...

و لم نره فى هذه الليلة فى مكان ظاهر من السفينة ..

وعلى مائدة الإفطار تفقدناه فلم نجده ...

وحتى ارتفاع الضحى لم يظهر له أثر ..

وقال لنا الطبيب ونحن على الغداء :

ــ لقد زرت سعد الدين فى « الكابينة » . إنه مريض كأنما أصابه نزيف ليلة أمس .. ويعانى هبوطا فى القلب ... سيقتله البحر إن هاجمه . وقد نصحته ألا يغادر الفراش حتى يصل إلى الميناء .

كان السبب طبعا عبئا من أعباء الحب .. ومصمص زملاؤنا بشفاههم في الوقت الذى كنت أفكر فيه هؤلاء فى الذين لا تطوف بحياتهم أشباح مخيفة على أى وضع .. وقبل أن ننزل الإسكندرية دخلنا نودعه لأنه سيواصل السفر حتى بورسعيد .. فرأيته أشبه بالناقهين لكن ابتسامة كانت تضيء وجهه المطمئن الطيب .

وفيما كنا نغلق عليه الباب ونحن خارجون كانت الحسناء الجديدة تستأذن عليه .

ورقة الفنان

أطفأت النور وأويت إلى فــراشى .. كان الليـــل قـد جـاوز منتصفـه ولا تزال بى رغبة فى القراءة فسهرت أقرأ .. تحدثت مـع نـاس كثـيرين مـن خلال الكتب .. كان معظمهم حكماء . ما أجمل السهر معهم !.

ولعله من أجل ذلك لم أستطع النوم بعدمـا أطفـأت النـور .. وكـان فـى رأسى أمواج مضيئة لم أستطع مغالبتها . نعـم .. فأسبلت جفونـى وتخليـت عن زمام الموقف فقد عرفت أن تملق النوم أشق أنواع التملق وحمله متعب .

وكان من الطبيعى أن أستعيد بعض مـا قـرأت .. فذكـرت تلـك القصـة التى عبر فيهـا أحـد الكتـاب عـن الأمـل وسـحره وقهـره كـل شىء حتـى عواصف الشتاء . وعلى الرغم من برودة الليل وخفة الغطاء أحسست أننـى قادر على أن أقف فى العراء أو أسبح فى المـاء وكـأننى أحس دفء الحمـام وعطره .

سألت نفسى قائلا : أى إلهام هذا الذى جعل الفنـان المحب يمنح الأمـل لمن أحب عن طريق رسم بسيط أبسط مما يتصور أحـد ؟ وعـن طريـق هـذا الأمل عاشت حبيبته المريضة وقهرت أشـد العواصـف .. تنظـر مـن نافذتهـا القريبة من الفراش فترى غصنا من أغصان شجرة عنب كل يوم تعريه ريـاح الخريف من بعض أوراقه ؟ وفى صباح أحد الأيام نادت أختها وأسرت إليها يأسها . قالت لها بخوف أو بشجاعة فهــذا لا يعنى ـ قالت لها إن عمرها

سينتهي يوم تسقط آخر أوراق هذا الغصن ، سيقهرها المرض .. وتنتهي .

ابتسمت لها الأخت ابتسامة محتجة ، وحاولت أن تنفي العلاقة بين العمر والورقة من ذهن أختها المريضة ، لكن ذلك ضاع عبثا . وعندئذ أبلغت الأخت حبيبها الفنان بالأمر فلم يعمل شيئا أكثر من أن رسم ورقة عنب لا تذبل ولا تسقط وثبتها على الغصن دون أن تعلم المريضة . وتساقطت كل الأوراق وبعثرتها الرياح إلا ورقة الفنان . ظلت ثابتة للعواصف تستقبل الليل والنهار بلون لا يتغير .

وظلت صامدة لقوى الطبيعة التي لا ترحم والمريضة ترقبها بعجب فلم تمت الورقة و لم تمت المريضة .

ونبتت مع الورقة التي زرعها الفنان أوراق خضراء زرعتها الطبيعة ، واستعادت الفتاة رونقها الساحر مع تفتح الأشجار .

* * *

هذه القصة كانت ضمن ما راودني خلال الليل ، ومن خلالها عرفت الطاقة التي يدخرها الأمل .. قنينة صغيرة من الذهب فيها أجمل روائح الدنيا .. وأخذت بدوري أتذكر مشاكلي وأضع نفسي موضع الفتاة التي أمدتها بالصحة ورقة الفنان .. لكنني لم ألبث أن جلست في فراشي كأن صوتا مخيفا ناداني لكنني وجدتني تلقائيا أرد عليه .. وكان هذا الصوت يقول لي : تعال نغير شيئا من القصة . ماذا يحدث لو جعلنا رياح الخريف ذات ليلة تتمكن من قطع العلاقة بين ورقة الكرم المرسومة وبين الذابل .. فأصبحت الفتاة في صباح يوم داكن وأرسلت نظرها عبر النافذة فوجدت الغصن

عاريا تماما وليس عليه تلك الورقة الخضراء التى ظلت واقفة تحارب قسوة الطبيعة .

* * *

أحسست بالألم عندما تصورت هذا وكدت أبكى .. فقد عز على أن أتخيل وقوع ما وقع .. وقلت فى نفسى لابد أن أجعل الأخت فى الموقف مع أختها المريضة ما دامت هى تعلم سر هذه الخدعة الجميلة التى منحتها تقدما فى الصحة لعدة أيام .. هذا جعلنى أحول القصة هكذا :

لابد إذن أنها دخلت عليها ذات صباح ورأت فى عينيها ذبولا وعلى شفتيها إعراضا عن الحياة . وعندما نظرت الأخت الكبيرة إلى غصن العنب عرفت سر حزن أختها .. فجلست على حافة فراشها وغنت لها أغنية تحبها كانا يقولانها معا فى الحدائق العامة أيام كانتا طفلتين تلعبان .. وجرتهما أغنية الطفولة الى ذكريات أجمل عمرا ، فأخذت المريضة تتكلم وهى تتنهد عن عدد القفزات التى كانت لا تحصى ولا تقهر فيها وهن يلعبن بالحبل فى ممرات الحدائق . وكان طبيعيا أن تصاب المريضة بوجوم بعد انتهائها مما قصته لأنها أخذت توازن بين الحالتين .

أطرقت الأخت الكبيرة وأمسكت بقدم اختها فى الفراش وأخذت تدلكها بحنان بعث فيها الدفء والراحة وهى تفكر ، وكان فى عينيها كلام لم تقله بعد .. حتى وجدت المريضة أنه لا مفر من أن تسألها أختها :

ــ عندك ما تريدين أن تقوليه هذا الصباح ؟ .. قولى ..

فردت بهدوء خال من المبالاة :

ــ هل رأيت ورقة العنب ؟ لقد سقطت فى الصباح الباكر قبل أن تستيقظى من النوم ..

قالت المريضة :

ــ أعرف ..

فقالت أختها :

ــ ومن قال لك أنها سقطت .

فردت باحتجاج :

ــ أنت .. ألم تقولى ذلك ؟

فردت الكبيرة :

ــ آه .. قلت إنها سقطت لكننى أسأت التعبير .. ماذا كان يجب أن أقول ؟! .. آه .. إنها لم تسقط .. بل إن الطبيعة لم تغلبها قط .. لقد كانت قوية .. وأنا التى غلبتها ..

هزت المريضة رأسها وجرى الدم فى خديها حتى صار أشبه بأوراق وردة .. منظر غير مألوف لدى عيون من حول المريضة . وخيل إلى الأخت أن قدمها التى تدلكها لها قادرة على أن ترمى بها إلى مكان بعيد .. فقالت فى إطراق :

ــ غريب ! هل يملأ الغضب جسمك بالعافية إلى هذا الحد ؟!.. إنك يا أختى قادرة على إهلاكى برجلك إذا أردت ذلك ..

ولم تنتظر حتى ترد المريضة واستطردت : على كل حال إذا كانت هذه الورقة موضع أملك كله فأنا المسئولة عن ذلك .. ولك أن تفعلى بى ما تشائين ..

وساد صمت .. لكن الأخت الكبيرة عادت بعده تقول :

ــ سأغيب عن عينيك حتى يغيب غضبك فأنا أستحق العقاب .

ولم تلبث المريضة أن غلبها الشوق .. فسألت أختها الكبيرة عما جرى .. فأطرقت نحو الأرض بعينين مذنبتين وقالت لأختها :

ــ قبل أن تبزغ الشمس كنت فى إحدى النوافذ .. رأيت حمامة رمادية اللون كبيرة الحجم تهاجم الورقة بمنقارها .. شعرت أنها تهاجم أملك على

غصون الكرمة .. فلم يطق قلبى .. انتظرت لعلها تكف فلم تنصرف .. وعندئذ دخلت كالمجنونة وأحضرت شيئا ..

وسكتت ثم استطردت بعد قليل :

ــ ألم تسمعى طلقة من بندقية الصيد التى يلعب بها الأولاد .. أحقا لم تسمعى ؟ إنها كانت شبه دفاع عن شىء اعتبرته أنت أملا .. آه .. لكن .. لعلك تعرفين الآن ما وقع ..

وهمست والدموع فى عينيها :

ــ طارت الحمامة والورقة معا .. وأصيبت الورقة ونجت الحمامة .. فأيهما رمز أملك الآن يا حبيبتى ؟ هل كان يسعدك أن ترى عبر النافذة فى الصباح حمامة قتيلة إلى جوار ورقة اعتبرتها رمز بقائك ؟ لم يكن هناك مجال للاختيار .. ففعلت ما فعلت ..

وفى صمت نظرت المريضة إلى أغصان العنب العارية .. و لم تلبث حمامتان أن حامتا حول الأغصان ووقفتا تتناغيان وكأنهما تستعيدان ذكرى طفولة .. كالتى قضتها هى وأختها ..

نهضت المريضة واتكأت على النافذة وابتسمت ، ثم قالت لأختها بجوارها :

ــ لو رأيت جنب ورقتى جثة طائر لحزنت حقا .. ولو غابت الورقة دون سبب واضح لحزنت حقا .. لكن تحول أملى حقا إلى تلك الطيور التى تقف بانتظار عودة أوراق جديدة ، وسأنضم إليها .. فعلينا إذن أن نخلق أملا إذا ما خطف منا أمل ..

فالتصقت بها أختها الكبيرة وهى تقول بفرح شديد ..

ــ أنت عظيمة .. قبلينى ..

انتظار

كانت الدقائق أثقل من أن يحتملها ، فى هذه الليلة أحس بوطأة الوقت .. زال عنه استغراقه فى الكتاب الذى شغله .. وغابت عنه مسئولية الطالب .. وألقى بسمعه إلى السلم وكأنه يحس وقع خطوات عليه .. خطوات .

إن قلبه فى انتظار .. يحس إحساسا يكاد يبلغ حد اليقين أنه سيسمع الخطوات على السلم ، وتنهد .. ونظر إلى نافذة الحجرة التى يسكنها هو وألقى بالكتاب الذى يذاكر فيه . أدرك بسرعة أنه يغالط نفسه فالجو شديد البرد والسماء لا تكف عن المطر ولابد أن الجو هناك أشد رداءة منه فى القاهرة .. ولكن .. آه ! لماذا يحس كأن خطوات تصعد السلم إليه ؟ إن زجاج النافذة يكاد يهتز ، والمطر ينقر على الشيش ، وعلى الرغم من كل ذلك فإنه لا يستبعد على هذا الإنسان الذى يحبه أن يخوض الأوحال وأن تبتل ثيابه ..

وعاد فتبسم لنفسه وحاول أن ينقل فكره إلى مجال جديد . إلى الكتاب فلم يقدر . ضاعت منه قوة التركيز . فتحول إلى تلك الحادثة المضحكة التى وقعت له صباح اليوم حين دخل مطعما صغيرا فى نهاية الشارع وتناول فطوره قبل الذهاب إلى الكلية ، وعندما وضع يده على جيبه ليخرج الجنيه الأخير لم يجد شيئا فعرق فى البرد ، وأخذ يفكر فى الطريقة التى فقده بها ؛

لكنه نظر إلى الرجل الواقف أمامه وبدأ يفتش جيوبه والرجل ناظر إليه ولكن .. أدهشه أن الرجل ناداه باسمه ، كان قد التقطه ببصره من فوق دفتر المحاضرات دون أن يشعر الطالب .. والتمس الرجل له الأعذار وقال له إنه بانتظار عودته مرة أخرى .. فقد كان يتردد عليه دائما .

وعندئذ خرج لا يصدق ، وها هو ذا الآن فى حجرته يسمع صوت المطر ويتخيل وقع خطوات على السلم ، ومع ذلك يضحك فى الهواء وينظر إلى السقف ويسائل نفسه :

ــ لكن يا ترى كيف ضاع منى الجنيه !

حاول أن يستغرق فى كتابه فلم يفلح . ووثبت إلى ذهنه صورة المأزق الذى وقع فيه فى الصباح . وضحك مرة أخرى .. ليس مما حدث ولكن من شيء يجوز أن يحدث . أليس من الجائز أن يأتى إليه ضيف ما فى هذه الليلة ؟ .. إذن فماذا يقدم له ؟ وقد يقول :

ــ هل أذهب معه إلى مطعم الفول الذى كنت فيه وقت الصباح ؟ (وضحك) ..

ثم أمسك الكتاب يقلب صفحاته .. وإذا بخطوات تصعد السلم إليه . لم يستطع أن يمنع خفقان قلبه ، فإن الذى يفد إليه فى مثل هذا الطقس إما شخص يدفعه الحب أو شخص تدفعه الضرورة . وأرهف سمعه ، كانت الخطوات تدل على أنها لشاب خطاه سريعة .. وضحك قائلا فى نفسه :

ــ أغلب الظن أنه « عمر » إنه هو .. ترى لماذا هو آت إلىّ ؟ على كل حال لقد جاء الفرج .

ودقت نقرات مرحة على الباب ما لبث صاحبها أن دخل . على ملابسه حبات المطر ، على شعره بلولة يمسحها بكفه ، وسحب كرسيا وجلس إلى جوار المنضدة الصغيرة وفرك يديه وتنهد ..

كان كل شيء فيه يوحى بالقوة والعزم والمضاء .. ونظر إليه صاحبه قائلا :

ـ آه يا عمر ! وقع أقدامك على السلم أثار ذكرى معينة .. ذكرى من يأتى إلىّ كل أسبوع .

فرد عليه قائلا :

ـ إننى أعرفها .. هيا قل لى ماذا تريد ؟

فقال صاحب المسكن :

ـ إننى أقرأ على وجهك كلمات أعرفها كذلك .. أنت الذى تطلب شيئا .. فقل لى ماذا تريد ؟

نظر إليه صديقه نظرة عميقة . كانت عيناه السوداوان تفيضان بالمعرفة ، ثم مسح رأسه كعادته عندما يهتدى لفكرة وقال لصاحب المسكن :

ـ كأنك محتاج إلى نقود ..

فانطلق صديقه يضحك قائلا : نعم ، لكن بإيماءة من رأسه ، وقص عليه حادثة الصباح حادثة الجنيه الضائع .. ثم خيبة أمله فى تخلف والده عن الحضور الليلة وإن كان لا أمل عنده بسبب غزارة الأمطار .

وما لبث الضيف أن استأذن فى الانصراف على أن يعود بعد قليل ، وأقفل وراءه باب صديقه ودلف إلى الظلام . وعاد الطالب إلى كرسيه وتنهد مرتاحا مستمتعا إلى همس الريح والنافذة وكأن شيئا لم يعد يعنيه .. كأن كلمة « عمر » أعادت إليه السكينة ، وإلى الطبيعة الهدوء فكاد المطر أن يكف عن الهطول فى نظره . وغابت عن ذهنه ـ مؤقتا كل الصور إلا صورة « عمر » وهو عائد إليه ينهب درجات السلم فى الظلام ، وفى جيبه النقود التى يريدها هو ..

وهناك فى حجرة عمر كان كل شىء صامتا .. عيناه تجولان خلال المكان كأنه يفتش عن شىء .. والوقت يمر .. ولا شىء يحدث .

تجمدت الأفكار بالنسبة إليه فلم يعد قادرا على الحل ، لأنه فى حقيقة

الأمر كان ذاهبا إلى صديقه .. ليطلب منه نقودا . كان هو الآخر فى انتظار حوالة البريد تأتى إليه بانتظام لكنها تأخرت عن ميعادها ، ولا شك أنه تأخر طارئ لأن والده من الموظفين .. يقول له : إنه يأخذ مرتبه من يد الصراف فيحول إليه ما يخصه قبل أن يذهب به إلى الدار . ومصمص الشاب بشفتيه وعاد يفكر .. ليته لم يذهب إلى صديقه فقد استشعر منذ عودته من عنده بأن المشكلة أصبحت مزدوجة .. مشكلة اثنين .. لو أنه ذهب إلى شخص آخر ليست بينهما رابطة عظيمة ما آل الموقف إلى هذه الحال ، وأخذ يردد فى ضميره : « أنا وصديقى .. أنا وصديقى » . لكنه وجد نفسه فى حالة لا يستطيع معها شيئا ..

وكلما مر الوقت على الشاب الثانى و لم تتردد على السلم خطوات « عمر » ازداد ضيقا ويأسا .. وبمرور الدقائق أدرك أن صديقه لم يكن صادقا فيما قال له ، وفطن بذكاء القلب إلى أنه كان فى مثل موقفه وإلا فلماذا لم يعد إليه .. وعندئذ فقط أحس أن المشكلة لم تعد شخصية .. لم تعد مشكلة واحد .. أصبح خروج « عمر » من عنده مشكلة اثنين فعاد يردد فى نفسه : « أنا وصديقى .. أنا وصديقى » . وزايله الدفء الذى كان قد ملأ نفسه ، و لم تعد الطبيعة هادئة كما كانت فسمع ولولة الريح وتساقط المطر ، وعاوده خيال « عمر » وهو يمسح بلل المطر من على شعره ، والثبات والتفكير الذى ملأ نظراته قبل أن يغادر الحجرة .

قام يقطع فضاء المكان ذهابا وإيابا كأنه حبيس ، ويقدح زناد فكره ماذا يفعل . لقد كان وحده قادرا على الصبر لكنه الساعة أحس أنه غير قادر . ثم بدأ يعمل حركات لا إرادة فيها ففتح صوان ملابسه ونظمه وأعاد تعليق « بدله » على الشماعات ، وفتش كل جيوبه كعادته قبل أن يسلمها للكواء .. ثم أشعل وابور الجاز ووضع عليه برادا كبيرا مليئا بالماء وتركه يغلى .. يرسل بخاره فى جو الحجرة ليشيع فيها الدفء . ثم تحرك إلى صف من

الكتب ليعيد تنسيقه ، وعندئذ انطفأ الوابور من تلقاء نفسه وامتلأ جو الحجرة ببخار الجاز المصعد ، فجرى نحوه بسرعة ليطفئه أو يعيد اشتعاله ، فسقط صف الكتب العمودى على الأرض مبعثرا .. ولكنه لم يأبه له حتى إذا ما أطفأ الوابور عاد إلى الكتب المبعثرة لينظمها ، يقرأ عنوان كل كتاب ويفر صفحاته ثم يضعه حيث كان .. حتى إذا ما وصل إلى الكتاب الأخير نظر إلى النافذة التى يحرك الهواء العاصف زجاجها المخلخل .. وتسمع ــ بغير مبالاة ــ إلى وقع المطر على الشيش .. ثم سارع إلى بدلته فارتداها وأقفل وراءه الباب وهبط على السلم بسرعة .

كان عمر لا يزال ساهرا فى حجرته تعود أفكاره من حيث بدأت ثم تبدأ من حيث تعود . وسمع نقرات على باب المسكن فقام وفتح ، كان متوقعا أن يرى أى شخص إلا صديقه هذا الذى كان عنده منذ ساعات .. أحس بالعرق يبلل جسمه وكأنه فريسة وقعت فى فخ وأخذ يتمتم ..

ــ آه .. آه .. هل .. آه .. هل جئت ؟؟

فضحك صديقه وقال :

ــ نعم جئت .. هل أنت خائف منى ؟

ودخل يمسح عن رأسه حبات المطر كما فعل عمر . وجلس على كرسى قريب .. وحملق كل من الشابين فى الآخر وانفجرا بالضحك فى وقت واحد .. سأل عمر :

ــ هل تعرف الآن ما فى نفسى ؟

فرد صديقه :

ــ نعم ..

فقال الصديق :

ــ لا .. إن ما فى نفسى لا يخطر على بالك . إننى لا أحمل مشكلة إليك

.. إننى أحمل إليك حبا .. أحمل إليك دفئا .. من الممكن أن تقترح على شراء أى شيء تريد . إن الجو بارد ممطر والليل طويل سيحلو الحديث منذ الآن .. عليك فقط أن تقترح ما تشاء ..

ولما بدت الدهشة على صديقه قال له :

ـ سافسر لك الأمر ، فإن الجنيه الذى ظننت أنه سقط منى قد وضعته سهوا بين صفحات كتاب ، وقد عثرت عليه عندما سقطت الكتب من مكانها ، ولذلك قطعت إليك الطريق الموحل الذى قطعته إلى . فما أعظم أن نفكر فى غيرنا .. وعندئذ سرى فيهما دفء جديد .. فقد كان كل منهما يعانق الآخر .

دقت الأجراس

لم أنهض من فراشى مبكرا هذا الصباح لأن أرقا غير مرغوب فيه صاحبنى حتى الفجر . وعندما نهضت من فراشى كانت الساعة تشير إلى الثامنة إلا ربعا ، فرأيت أنه من الأوفق أن أرتدى ملابسى بسرعة وأهمل حلاقة ذقنى ، وبذلك أكون قد وفرت من الوقت ما يمكننى من أن أصل إلى مكتبى فى الموعد المحدد . وكنت أرتدى ملابسى والمرآة الصغيرة المثبتة فى الحائط تحدثنى عن الشحوب الذى كسا وجهى ، وعن ذبول العينين الذى خلفه الأرق . فقد كانت الليلة الماضية من الليالى الثلاث التى بقيت لى فى هذه الشقة المكونة من حجرتين أسكنهما وحدى ، وبعد ليلتين أخريين سأنتقل إلى شقة أخرى مكونة من ثلاث حجرات . كنت أفكر فى هذا طوال الليلة الماضية . وخيل إلى عندئذ أننى أعبر قنطرة لا تنتهى ... أسير عليها وحدى وأعد مصابيح النور وأنا خائف ، فأنا فى واقع الأمر أجتاز الليالى الأخيرة فى حياة العزوبة ، ومن أول الشهر القادم سأصبح رجلا آخر فى حياة أخرى ... سأصبح زوجا .

ولم يكن تفكيرى طوال الليلة منصبا على المستقبل بقدر ما كان منصبا

على الماضى ، فقد أخذت أفكر فى الأعوام العشرة التى قضيتها فى هذا المكان ، بحيث أصبح التفاهم شديدا بينى وبين كل شىء فيه كأنه الدار التى ولدت فيها . وانتقل تفكيرى إلى إمكان أن أعيش فيه أنا وزوجتى ؛ ولكنها عارضتنى معارضة شديدة فهى ستستصحب معها أثاثا لثلاث غرف ، وهى ترغب أن تعيش فى حى غير مزدحم ، وهى لا تطيق أن ترى شباكا قريبا من شباك ، وهى لا تتحمل ضجيج الصبيان فى الأحياء الوطنية ... وعندما وصل تفكيرى إلى هذه النقطة كان الليل قد نحو الصباح وغلبنى النوم . ولما استيقظت أخذت أرتدى ملابسى بسرعة مهملا أشياء كثيرة ، حتى أتمكن من الوصول إلى عملى فى الوقت المحدد .

لكن جرس الباب فى هذه اللحظة دق دقات طويلة تدل على الأهمية ، فوضعت المشط الذى هممت أن أسرح به شعرى وجريت نحو الباب . وكنت وأنا أعد هذه الأمتار التى لا تزيد على أربعة أفكر فى أشياء مثيرة ، منها أنه من المحتمل أن تكون خطيبتى عرجت على لأمر طارىء .. لكن .. فى مثل هذا الوقت ؟

. إذن فهو شىء خطير . قلت فى نفسى وأنا أبتهل إلى اللّه أن يجعله خيرا وجرس الباب متصل الرنين : « ربما كان شيئا متعلقا بنقل الأثاث أو ... » .

وانقطعت أفكارى لأن الرنين كان مزعجا ، وخطر لى خاطر سريع جاء فى الوقت المناسب له لا لى أنا ، هو أن جد خطيبتى لابد أنه قد مات ليلة أمس ، فقد كان متأخر الصحة بعد أن هزمته الشيخوخة . وكان هذا داخلا فى اعتبارنا كلنا . إذن فلابد أن يتأخر الزفاف ... وفتحت الباب فإذا ضحكة عريضة طويلة من قلب خلى تنبعث من سيدة .. مصحوبة بتحية الصباح . فاستشطت غضبا واطمئنانا فى وقت واحد ، فقد كان الطارق صاحبة البيت و لم تكن وحدها .. كان معها « رجل » وامرأة يبدوان أنهما زوجان على وجههما ملامح السير فى طريق العمر ، وكانا كأنهما

قادمان من سفر .

وعبرت صاحبة المنزل شقتى دون تردد والابتسامة المرحبة لم تفارق وجهها ، وفهمت توا أنهما من السكان الجدد ، وأنهم جاءوا ليروا سعة المسكن ومدى صلاحيته بالنسبة لهم .

كان كل شيء فيه يدل على حياة العزوبة تماما . ومشت صاحبة البيت وخلفها الزوجان وأنا وراء الجميع ، وكان كل شيء مشعثا مغبرا وبعض قطع الأثاث القليلة مرصوصا بعضه فوق بعض .. ووقفت الزوجة تنظر من أحد الشبابيك الجانبية بعد أن فتحته لترى مدى قربها من الجيران . ثم رجعت وعلى وجهه علامة تأفف خصوصا عندما وقع نظرها على الملابس المحتاجة إلى الغسيل وهى مكدسة فى حقيبة سفر قديمة انفصل عنها غطاؤها منذ عهد بعيد . وتبادلت المرأتان النظر ثم الابتسام فى الوقت الذى كنت أنظر فيه إلى ساعة معصمى لأدلهم على عجلتى . ثم التقى وجهى بوجه الزوج فرأيت فيه علامات تودد وطيبة . وعندما ارتفع صوت صاحبة البيت تثنى على عشرتى وتبين أن السبب فى انتقالى هو الزواج ، شد الرجل على يدى مشجعا وكأنه يعرفنى ، وكان صوت زوجته يأتى من الحمام الخالى منفعلا مستعجلا طالبة من زوجها إبداء الرأى فيما إذا كان فى الإمكان تحويل هذا المكان إلى غرفة صغيرة ما دام المسكن بهذا القدر الضيق ؟! ودار نقاش طويل شاركتهم فيه صاحبة البيت عن إمكان تحويل الجزء الثانى من دورة المياه إلى حمام ومكان لغسل الملابس . وقالت صاحبة البيت فى اعتزاز سيدة عظيمة التجربة : ومن الممكن استغلال الركن المنزوى فى آخر الصالة للطبخ ما دمتما محتاجين لمكان من أجل الأولاد . ورأت الساكنة الجديدة أن تعيد النظر على هذا الركن لأنها لم تلاحظه من النظرة الأولى ، فعادت القافلة نحوه من جديد . وكان صوتها يرن فى المكان وهى توزع

الأطفال على الحجرات قائلة : « سنية وعوض معنا فى هذه الحجرة . وعلى ووداد وزكى فى هذه الحجرة .. والباقون فى الحمام بعد أن يفرش . ممكن . وكان الوقت قد تأخر وكانت الساعة تعدو نحو الثامنة والربع ، وتذكرت أن اليوم يوم أحد ورجحت أنه يوم إجازة للزوج . كنت أنظر فى ساعتى قلقا والثلاثة يثرثرون بتنظيم الشقة ، حتى إذا ما وصلنا إلى الركن المنزوى فى الصالة عادت الزوجة تنظر إلى حقيبة السفر وما فيها من ملابس باشمئزاز كبير . وابتسمت فى سرى وأنا أوازن بين مشكلة ملابسى ومشكلة أطفالها ، فى الوقت الذى بدءوا فيه ينسحبون من الشقة تتبعهم تحيات صاحبة البيت » .

* * *

نظرت فى الساعة فإذا بها قد بلغت الثامنة والثلث . ولسبب ما عدت ألقى نظرة على وجهى فى المرآة فبدا شعر ذقنى أكثر طولا . وعلى الرغم من تأخر الوقت تملكنى خاطر بضرورة حلاقتها ؛ لكن شيئا أكثر أهمية استرعى نظرى . فقد رأيت قطعا لم ألاحظه من قبل تحت ياقة القميص على عظمة الترقوة ، وكان على أن أغير قميصى لأننى أدخل على رئيسى باستمرار لإمضاء أوراق هامة ، وكان هذا يستدعى تنظيف أسنانى وحلاقة ذقنى وهندمة ثيابى . وجريت أفتش عن قميص نظيف فاكتشفت أن آخر قميص هو ذلك المقطوع وأنه لا مفر من الذهاب إلى العمل . وبدت لى فكرة حسبتها رائعة هى أن أحاول رتق الممزق بإبرة رفيعة مثل التى يستعملونها فى رفى الملابس ، وتذكرت أننى اشتريت عددا منها من بائع فى الترام ، فعدت أخلع ثيابى وجلست أحاول فرأيت الأمر سخيفا لأن الخياطة ستدل على القطع أكثر مما يدل القطع نفسه : فتحيرت الإبرة فى يدى حتى فطنت على جرس الباب يرن ، فقلت فى نفسى : أنها ولا شك خطيبتى .

هرولت لأفتح وأنا ألبس جلبابى فى الطريق ، وأحس بالضيق لأشياء ضاعت منى هذا الصباح . ولما فتحت الباب وجدت المنظر السابق مع شيء من التبديل . كانت صاحبة البيت ومعها ساكن جديد كان وحده فى هذه المرة ، رجل فى الخمسين من عمره تبدو عليه الصحة والأناقة ، وتتناقض بشاشة وجهه مع شعر رأسه الأشيب . وأخذنا نجوس خلال المسكن والرجل صامت لا ينبس بكلمة ، وصاحبة البيت تمشى أمامنا تطقطق بالحديث مثل طائر مرح . كانت تقول « إن مثل هذه الشقة أحسن سكن لأسرة صغيرة ، فمن الممكن أن تجعل هذه الغرفة للنوم لأنها هادئة ، وهذه الغرفة لاستقبال الضيوف . وإذا كان عندك أولاد كثيرون فمن الممكن تحويل هذا الحمام إلى غرفة » .

وضحكت ، وفهمت من نظرتها أن الساكن الذى نزل منذ قليل قد عدل عن سكنه هنا .

كان الرجل يحملق فى المكان كأنه يفتش فيه عن أثر شيء قديم .. وعندما وصل إلى إحدى النوافذ وقف يطل على الحارة . كان يبدو هادئا مما أكد لى أن إجازته الأسبوعية لابد أن تكون يوم الأحد مثل الرجل السابق . ونسيت مسئوليتى كما يتبلد المدين ، و لم أعد أنظر فى ساعتى استعجالا للأمور . وعندما لحقت بالرجل عند النافذة رأيته ينظر إلى كومة الغسيل وهو قلق ، وسألنى بمجرد أن وصلت عنده :

ــ لماذا ستترك المسكن ؟

فقلت :

ــ لأننى سأتزوج .

فظهرت على وجهه فرحة حزينة ثم ابتسم عن أسنان فى بياض اللؤلؤ عرفت من نظامها أنها صناعية وهز رأسه وهو ينظر إلى كومة الغسيل

ويضحك فى رقة وسعادة .

ــ مبارك .. أسعدك اللّه .

وعندئذ رأيت أن أبادله رقة برقة ، فى الوقت الذى كانت صاحبة البيت فيه تحاول إصلاح إحدى النوافذ بيديها قبل حلول الساكن الجديد . قلت للرجل ببساطة :

ــ هيه .. وما رأيك فى الحياة الزوجية ؟

فهتف بشاعرية :

ــ جميلة .. جميلة لمن يعرفها .

فسألت :

ــ ماذا تعنى ؟

فأجاب بهدوء مهموم :

ــ أعنى ما قلته تماما .. أعنى أننى لم أعرفها قط . لذلك فإن هذا المسكن يكفينى . (واستطرد ضاحكا) ليخرج عازب وليدخل أعزب منه !! فيه حجرتان أنام فى كل حجرة شهرا . ما أجمل أن تمتد الحياة ! . (وارتفع ضحكه) وقبل أن أنطق بكلمة كانت صاحبة البيت قد وصلت إلينا وهممنا أن نتكلم لنتفق فإذا بجرس يدق وإذا بالزوجين اللذين كانا قد نزلا منذ وقت عادا يصخبان ، فقد اتفقا فى الطريق على صلاحية المسكن .

كنت قد فتحت الباب بمجرد أن دق الجرس ، وكانت صاحبة البيت على مقربة من العتبة .. ودخل الزوجان عندما رأياها ، وأخذت الزوجة تتكلم وفى يدها عقد إيجار جديد . ولما تبادلنا النظرات فهم الزوج حقيقة الموقف .. أما أنا فقد نظرت إلى الساعة بقلق فوجدتها قد بلغت التاسعة والربع ، فأخذت أتصور كم مرة سأل عنى رئيسى ومدى غضبه عندما سأدخل عليه . جلست على أحد الكراسى أرقب تشبث الطرفين كل بموقفه وحيرة صاحبة المنزل التى لم تكن تعبر عنها إلا بالضحكات فى الوقت الذى

أخذت الزوجة تعبر عن أحقيتها بالغضب والصوت المرتفع ، على حين كان الرجل الثانى يعبر بالحكمة والمنطق ؛ غير أن الموقف كان محتاجا إلى منطق أعلى ، منطق كان من الضرورى أن يأتى لأنه من المحال أن تبقى الحال على ما كانت عليه . وفى اللحظة التى هممت فيها أن أنفجر غاضبا فى وجه الجميع دق جرس الباب دقة طويلة ، فذهبت صاحبة المنزل وفتحته وانطبعت على وجهها علامات جديدة ، فقد اتسعت عيناها وغابت بشاشتها وهمست كأنها تحلم باسم أعرفه وتعرفه هى ، فقد رأيتها عندى عدة مرات .

فدخلت خطيبتى من الباب الموارب وشقت طريقها وعيناها تتساءلان عن سر هذا الجمع . وقبل أن تسألنى رأيت ملابسها السوداء ووجهها الخالى من الزينة ، عندئذ عرفت أن جدها قد مات وأن الزفاف قد تأخر ...

نظرت إلى الجميع وقلت لهم بيسمة آسفة :

ــ متأسف .. لن أنتقل من هذا المسكن قبل مرور ثلاثة شهور .

ولكنى لا أستطيع أن أنسى نظرات كل منهم وهم يخرجون تباعا من الباب ، ونظرة الود الوديعة التى لاحت من عين الرجل الأشيب .

بقية حساب

كانت المفاجأة سعيدة بالنسبة إلى يوم حططت رحالى فى مقر عملى الجديد بأحد مراكز الوجه البحرى ، فعلمت أننى سألتقى فى هذا المركز بصديق قديم جمعتنا الوظيفة يوما ما فى أحد مراكز الوجه القبلى ، وكان ذلك منذ خمس سنوات .

وكان المركز الذى انتقلنا إليه فقيرا يلفه جناح الصمت والوحشة بعد الغروب بقليل ، خاليا من الملاهى والنور والمياه أشبه بالقرية ، لولا شلة من الموظفين ورجال البوليس والإدارة أقاموا فيه بأسرهم كارهين يلفهم جناح الصمت والوحشة بعد الغروب هم الآخرون ، فيستنجد بعضهم ببعض على تشتيت الوقت وقتل السأم ولو بالمقامرة والغيبة وبالتعريض بالناس ، واتخذوا لذلك محلا مختارا جميل الموقع يطل على الحقول هو نادى الموظفين . وفى نادى الموظفين كان لقائى للمرة الأولى مع الدكتور حلمى حكيمباشى المستشفى بعد نقلى إلى هذا المركز ، واحتضن كل منا صديقه فى شوق ثم انتحينا ناحية من المكان وجلسنا نتكلم ونهمس نذكر الأيام الخالية ، غير أنى رأيت الدكتور حلمى فى هذه الليلة على غير عهدى به .. خيل إلى أن شيئا من الكبرياء قد مسه وأن شيئا من الجهد باد عليه ، حتى طريقة نفضه لرماد السيجارة كان فيها تكبر وعدم استقرار . وعزوت هذا فورا إلى أن الدكتور أصبح طبيبا أول ، وإلى الثروة التى اقتناها من مزاولته المهنة فى

الأرياف فقد كان موضع حسد كل زملائه لثقة الفلاحين فيه .

أما أنا فقد كنت طبيبا بيطريا أعيش بمرتبي . ولما كان الريفي لا يستشير الطبيب في مرض ابنه إلا إذا سمع طرقات عزرائيل على باب الدار ، فإنه من باب أولى لا يستشير البيطرى فى مرض ماشيته .. فأنت تعرف حقيقة دخلي .

ولم يسهر الدكتور حلمي طويلا فاستأذن وانصرف ، بحجة أن زوجته على أبواب الولادة وأن طفلا من أطفاله مريض بالحصبة والخادمة يدها محروقة .. ثم زم فمه فى اشمئزاز من الدنيا وهز كفى فى حرارة مودعا إلى لقاء آخر .

وفى الوقت الذى كنت أسمع فيه خطوات الدكتور تهبط الدرج الخارجي للنادى كنت قد أتخذت مجلسى بين الإخوان ، فلوى المحامى الطويل السقيم شفته السفلى وهو يقلب صحيفة المساء وقال بلهجة تدل على الغيظ :

ـ لماذا انصرف الدكتور مبكرا فى هذه الليلة ؟

فقال ثان :

ـ يحتمل أن يكون قد استدعى لزيارة مريض فى كفر من الكفور .

وأكمل الثالث :

ـ أو عزبة من العزب .. فلوس !

وكنت أنا أقلب وجهى فى هؤلاء الناس وأعجب لهذا المجتمع الصغير الذى حوى من العيوب كل ما يحويه مجتمعنا الأكبر ، وتنهدت فى صمت . لكننى عدت فتذكرت شيئا جعلنى أعدل عن تعجبى : تذكرت أن الحفنة الصغيرة من المخزن الكبير تحوى من العيوب والمزايا ما يحويه القمح من المخزن . لكننى قلت فى هدوء موجها الكلام للمجموع :

ـ عند الدكتور حلمى الليلة عذر عائلى يحتم عليه البقاء فى البيت .

فتكلم مأمور المركز فأنصتنا جميعا ، قال بوقار وبصوت خافت :

ـ يخيل إلى أن هذا الرجل يعانى من المجتمع عقـدة معينـة .. إنـه لا يـألف ولا يؤلف ...

فقال صوت بعيد :

ـ صحيح .

فاستطرد المأمور بصوته الوقور الغليظ الخافت :

ـ إننا هنـا فـى شبه منفـى .. فـى بيئـة متشـابهة مملـة ، فـإذا لم نتعـارف ونتزاور عائليا كان معنى ذلك ...

ولم يكمل وقلب كفيه معبرا عما يريد ، فأكمل المحامى بحدة وعصبية :

ـ معناه الموت .. كالذى تخلـف عـن القافلـة فـى الصحـراء أو فـى بـلاد الإسكيمو .

وقهقه الجالسون واستطرد المحامى يقول :

ـ هناك نفوس مثل الكهوف لا يدخلها النور ، أعوذ بالله !

فأحسست أن فى ذمتى أمانـة يجـب أن أؤديهـا ؛ والموظـف الجديـد بـين الناس يحس بالغربة شيئا ما ويحـاول بقـــدر الإمـــكان ألا يتـــورط فى أمـــر لا يعرف مداخله ومخارجه فقلت فى هدوء وأنا أكتم غضبا :

ـ أنا أعرف الدكتور حلمى من زمان ؛ إنه رجل اجتماعى يألف ويؤلف إلى حد كبير . أخو إخوانه وصديق أصدقائه وأبو أبنـائه ، كله مروءة . فهل لمستم منه غير ذلك .

فلم يجبنى جواب ولم أسمع صوتا كأننى ألقيت حجـرا فى بـئر لا قـــرار لها .. إلا المحامى فإنه قال بعد برهة بلهجة من يريد أن ينهى نقاشا :

ـ صل ع النبى يا دكتور ، خلينا هنا !

فقال المامور بصوته الوقور الغليظ الخافت :

ـ دعوا الخلق للخالق .

فتركوا الخلق للخالق ، وابتدءوا يلعبون .

وتبينت فى الأسابيع التالية أن الدكتور حلمى قد تغير حقا .. دعانى للغداء وحدى بلهجة ملفوفة مؤدبة . حقيقة أن زوجتى لم تكن تعرفت بزوجته لأننى تزوجت بعد أن افترقنا . وانتقلنا بعد الغداء إلى حجرة الصالون وجلسنا ندخن ، فقام الدكتور وأقفل الباب بيديه ، وأحسست من حركته أنه يريد أن يختلى بى وأن يستنبط منى سرا معينا ، والناس قبل أن يستنبطوا الأسرار يلجئون فى العادة إلى أشياء تريح الأعصاب : منها الكرم ، ومنها المديح ، وأشياء أكبر من هذا إذا كانت القضية بين رجل وامرأة . لكننا كنا رجلين . فشرع الدكتور يذكرنى بالماضى ويضحك ويعايب كثيرا من الشخصيات التى عرفناها فى الصعيد ، ثم يقول لى عقب سرد عيوب كل رجل : « أما أنت فنظيف طول عمرك ، طول عمرك ! » .

وقدم لى فنجانا ثانيا من القهوة ثم سألنى فى خبث :

ـ هل أعجبتك الجماعة الذين كنت بينهم فى النادى ؟

ـ لا بأس .

ـ هل يحبوننى جدا ؟

ففهمت أنه يريد العكس لكننى غالطت :

ـ أنت رجل تُحب ..

فقهقه وأطفأ سيجارته وقال لى :

ـ لا تخف ! قل كل ما فى نفسك فإن نفسك تطل من عينيك .. قل يا صديقى .

ففهمت بدورى ، وأطفأت سيجارتى وقلت :

ـ دكتور حلمى .

ـ نعم !

ـ يخيل إلى أنك تغيرت ، لم تكن هكذا ، كأنك متكبر أو مهموم أو تحمل الصنفين معا .

ـ كلهم يقولون عنى ذلك ، لكن .. اسمع لى .

وانتقل إلى كرسى قريب وترك نظراته تجوس خلال الشجر الواقف عند الأفق وراح يروى :

« كان ذلك منذ أربعة أشهر فقط قبل أن أنقل إلى هنا يا صديقى ..

« وكنت فى أحد مراكز الوجه البحرى أيضا ..

« وتوثقت عرا الصداقة بينى وبين أحد الموظفين وكان رجلا طيبا مصالحه تقتضيه أن يغيب عن بيته فى بعض الليالى ..

« واتصلنا عائليا فزرناهم وزارونا ، وبلغت الصداقة بيننا القمة حين مد صديقى يده إلينا يطلب قرضا فى ظروف طارئة لم تحتملها ميزانيته ، وكان هذا بواسطة الزوجات .

« وترددت امرأته على بيتنا دون أن يكون هو معها . وكان ذلك فى الليالى التى يسافر فيها الزوج ... غالبا .

« وكنت أحس بينى وبين نفسى أن هذه الزوجة ينقصها شىء ، فقد كانت تعرج فى كلامها دائما فجأة وبدون قصد حين كانت تجلس مع أسرتى وأنا بينهم إلى « المظاهر الخداعة » و « الحيطان تدارى الناس » و « الأفواه الضاحكة والنفوس الحزينة » ثم تطرق فى يأس ثم تنظر إلى فى أمل !

« لم أصدق عينى ولا ظنى بل كنت أنفى عن قلبى كل خاطر يحوم

حوله فيما يتعلق بهذه السيدة . وأنت يا صديقى جربت الإقامة فى الريف وعلمت أن الروائح تفوح فيه بسرعة ، وأن أى قصة من قصص الغرام لا يمكن أن تظل مكتومة إلى أمد طويل » .

وابتسم وأشار بكفيه يقول :

ـ لابد أن تسرى مع الهواء الطلق ...

« وخدمتها الظروف حين أصيب أحد أطفالها بجراح جعلها تتردد على عيادتى ، وكنت فى الحقيقة أستعجل شفاء هذا الطفل لينقطع ترددها لأننى أحس بعذوبة اللحظات التى كانت تختلى فيها معى ، وبطلاوة حديثها وحلاوة نظرتها ، وبدأ العقل يكف عن أن يعمل والإحساس يكاد يكون جسيما ، ورأيت على الأفق القريب فى حياتنا شبح ـ غارة ! » .

وسكت الطبيب قليلا كأنه يستعيد ذكرى موقعة ضخمة ، ثم قال وهو ممسك كفا بكف :

« وكان ذلك ضحا يوم من الأيام وأنا ألف الرباط على فخذ طفلها المريض ، وكانت منحنية تعاوننى على عملى ماسكة بورك الطفل .

« لم تكن طبيعية فى هذه اللحظة . كانت تبدو كأنها محمومة أو مهزومة ، أنفاسها الساخنة تهب على وجهى من قرب ، وعيناها فاترتان حتى كأنها عاجزة عن فتحهما . وأشعرتنى بنظراتها أننا فى موقف نهائى .. نهائى تماما .. فقد أصيبت بضعف الأنثى وكدت أصاب بضعف الرجل ، ونحن لا نفعل كبريات الجرائم إلا ونحن فى حالة ضعف ...

« ولم أستطع إحكام الرباط لأن يديها لم تكونا قويتين ورجل الطفل تختلج فى كل ناحية ، فقلت لها وعيناى فى عينيها :

ـ اضبطى أعصابك .. من فضلك .

ـ بودى ذلك !

ـ لكن ...

ـ لكن ، إيه ؟

« وتنهدت وكأنها تئن ، وكـانت خدودنـا تتلامـس ، لكننـي تماسـكت وقلت لها والعرق ينضح من جبيني :

ـ لكن إيه ؟ هذا الطفل غال على لأنه ابن صديقـي ، فيجـب أن أتذكـر ذلك !

« و لم أنظر إليها ، لكننى أحسست أن فورتهـا قـد انطفـأت وأن خجـلا يخالطه غضب سرى فى أعصابها ... » .

قلت لصديقى :

ـ أنت رجل فاضل .

فأجاب وهو يبتسم :

ـ الخوف أبو الفضائل ، نحن نتطلع دائما إلى مـا فـى أيـدى غيرنـا لكننـا نخاف . لن أحاول أن أخدعك لأن موقفى معها كان جـائزا أن يتغـير لـو لم نكن فى الريف ، على أن زوجتى كانت قد بدأت تحس . مصيبة مزدوجة ! ونحن لا يعجبنا الثمن الغالى ولا الغـالى الفـاحش . الغنـائم البـاردة هـى التى تستهوينا ، هذا كل ما فى الموضوع .

ثم استرد نظراته من الخارج ، ولبست لهجته رنة مـن وجـد خلاصـا مـن المأزق . فقال : « وفى الزيارة التالية كانت عيناها مليئتـين بالعتـاب والجـد وأخذت تتكلم عن « الصبر » بمناسبة وبغير مناسبة ، وعن الأجر الذى ينالـه الصابرون ، وكـان حديثهـا شـاعريا يثـير النفـس ويجعلـك تشـعر أنـك أمـام شهيدة » .

ثم استطرد يقول بعد فترة صمت :

« و لم يمض على هذه الحـــوادث أكـــثر من شـرين حتى فوجئت بأننى

منقول . كنت كثير المكاسب فى هذه المنطقة إلا أننى أحسست ببرد الراحة يمشى فى صدرى .

« وكانت العلاقة بيننا قد فترت ، وزيارات زوجته لنا شبه معدومة فى الفترة الأخيرة .

« والتقيت أنا وصديقى هذا فى النادى قبل سفرى أنا وأسرتى بيوم واحد ، فدعانى إلى أن أنتحى معه ناحية هادئة لأن بيننا حساب يجب أن نتناقش فيها . وهناك بعيدا عن الضوضاء والأسماع بدأ الرجل الطيب يتكلم وفى صوته شىء من عدم الرضا ، فقال :

« أظن أن المبلغ الباقى طرفنا لك يا دكتور هو خمسة جنيهات ونصف ، إليك المبلغ وشكرا . وهناك « حسبة » أخرى أريد أن أناقشك فيها » .

فخفق قلبى ، واستطرد الرجل الطيب :

ـ جاءتنى رسالة مجهولة منذ ثلاثة أشهر فيها جملتان اثنتان . كانت مكتوبة بخط لا أعرف صاحبه وكان فيها : « لا تثق بأصدقائك أيها الرجل الطيب » . وتألمت جدا لأننى كنت واثقا فى الطرفين ، فى زوجتى وفى أصدقائى الذين أعتقد أنك أولهم ؛ لكننى شككت فاستعنت بالحركات المكشوفة التى يعملها كل الناس : رجعت من السفر فجأة وحددت علاقة زوجتى بالبيوت التى تتردد عليها وبيتكم أولها . وأخيرا صرخت زوجتى فى وجهى عقب عودتى من السفر تستوضحنى الموقف ، فرأيت أن حياتنا المشتركة تحتم على أن أطلعها على الرسالة ما دامت براءة ساحتها قد ظهرت بعد هذه التحريات . فلما رأتها انهارت أعصابها وأخذت تبكى ، وحين أخذت فى تهدئة ثائرتها قالت فى فترة ضعف :

« أنا أشك فى الدكتور ، ربما كان له علاقة بهذه الرسالة » .

« أما بقية القصة فهى سر بينى وبين زوجتى . والسلام عليكم !

« وقام الرجل الطيب يصافحنى مودعا قبل أن ينصرف وعلى وجهه ابتسامة كريمة ، كأنه غفر لى ذنبا !

. أما أنا فقد رأيت أن أتركه فى أحلامه خصوصا لأن العلاقات بيننا قد صفت نفسها وكان من المحال أن أقنعه بالعكس ، وإذا كان ذلك ممكنا فأيهما أقرب إلى جانب الفضل ؟ إن فى حياتنا أشياء نألم حين نعرفها ونتمنى بيننا وبين أنفسنا لو أنها ظلت مجهولة بالنسبة إلينا طول العمر .

« وفى موطنى الجديد هذا الذى التقينا فيه قررت العزلة ولو مؤقتا ، لأن رجلا طيبا من الناس يعتبرنى خسيسا وهو لا يعرف الحقيقة » .

فسألت الدكتور فى شغف :

ــ لكن من الذى كتب الرسالة المجهولة ؟

فقال :

ــ أنا .. أردت أن أتخلص لكن الحوادث جرت شوطا بعيدا حين أطلعها على الرسالة ، وذلك لم يكن متوقعا .

فسألته قائلا :

ــ هذا جميل ... طيب ... لكن لماذا سارعت الزوجة باتهامك على هذه الصورة ؟!.

فابتسم صديقى ابتسامة غامضة أولتها تأويلات كثيرة ، وكان بعض تأويلاتى لا يخلو من شكى فى أنه أحبها وتماسك . وقال لى :

ــ هذا السؤال أجابت عنه رسالة بغير إمضاء وصلت إلى بعنوان المستشفى بعد نقلى بأيام ، ولم يكن فيها سوى هذه الكلمات :

« لم يكن قصدى أن أنتقم منك ، ولكن كنت أرجو أن يساعدنى زوجى على أن أكرهك » .

فهززت رأسى فى شرود وعجب ، وكانت نظرات صاحب البيت قد عادت إلى الخارج ووقف عند خط الشجر على الأفق ، ودقات ساعة فى البهو تعلن الرابعة بعد الظهر ، فاستأذنت منصرفا .

كل يغنى على « ليلى »

كان أسعد يوم فى حياته هو ذلك اليوم الذى نال فيه شهادة الثقافة من أول دور وسمع فيه زغرودة أطلقتها أمه على السلالم مثل.بمب يوم العيد ، فتجمع النساء حولها والأطفال .. والرجال أخيرا ليشربوا شربات الورد ابتهاجا بنجاح « سعد » .

وفى مساء اليوم التالى فترت الفرحة وأعقبها الخمول النفسى الذى نحسه عقب كل توتر ، والذى نرى شبيها له حتى على أماكن الأفراح بعد أن ننزل عنها معالم الزينة .

كان المسئولون فى البيت .. يتحدثون عن المستقبل ..

كان أبوه « ترزيا » بعين واحدة . والأم تخدم فى البيت خمسة من الأطفال غير .. الزوج .. الذى كان يعود آخر اليوم بمطالب شخصية وهموم جماعية على الزوجة أن تشاركه فيها . لذلك لم يكن اجتماع الأسرة عقب نجاح « سعد » إلا ترجمة للحلم بالراحة الذى يراود الأم فى البيت والأب فى الدكان .

ولما صدر القرار باتفاق الزوجبن على وجوب توظيف « سعد » كانت

الفرحة التى شملته أقوى من أن توصف ، ولو أن نورها سطع من عينيه الضيقتين الذاهلتين وارتسم على شفته الغليظة القاسية .

وأشفق عليهم الزمن فلم يطل لف « سعد » ولا بحثه عن الوظيفة ، فعين كاتبا فى إحدى الإدارات بإحدى الوزارات .

وعلى السلم مرة أخرى انطلقت زغرودة اجتمع لها النساء والأطفال ودارت بعدها شربات الورد . وبقيت دعوة أخيرة كانت ختام التهنئة على فم كل امرأة دخلت على أم سعد . هى : « عقبال العروسة » .

وكانت الأم تغمغم فى الرد عليها وتحاول أن تقف بينها وبين اللّه لأن ظروف ابنها لا تسمح بقبول هذه الدعوة .. إنهم فى حاجة ماسة إلى وجوده معهم ..

أبوه ذو العين الواحدة يعود آخر النهار وهو يلعن الإبرة والمقص ، وأمه .. عندما يأتى منتصف الليل .. تكون قد فرغت من لعن جميع أدوات المنزل ...

* * *

لكن فرحة الابن كانت بمعزل عن كل هذه البلايا ..

ومنذ الأسبوع الأول من تسلمه الوظيفة خالطت فرحته أحلام مخمورة ... بعد أن التقت عيناه بعينى « ليلى » الكاتبة على الماكينة فى نفس الإدارة ، ذات القوام الرقيق والوجه الأسمر والعيون الملونة ..

كان لا يكف على مراقبتها حتى وهو يعمل ، ويقضى فترات ما قبل النوم كل ليلة فى إحصاء الكلمات العادية التى تبادلها ، وفى تصور حلاوة الكلمة غير العادية التى يأمل أن يسمعها من فمها . إن قلبه يخفق باستمرار ويدق مثل حامل حروف الكتابة التى تدقه بأصابعها طول اليوم . وقد يرقص قلبه عندما يدخل النسيم من النافذة الشمالية فيفسد نظام شعرها فتمد

يدها نحو جبينها لتسويه فتكف الماكينة عن الدق ...

وجلس مستغرقا فى العمل وكل شىء فى المكتب هادىء ... إلا ليلى والماكينة . وكان الوقت صيفا وزميلاه فى إجازة ، وكان هذا هو اليوم الثانى لانفرادهما معا فى الحجرة .. وقد ظل طول الليلة الماضية يتحايل على النوم بلا جدوى . كان يفكر فيما يمكن أن يقول لها . كان يشعر بأن كل شىء يتعلق به أمانة عنده يحتفظ به من أجلها هى .. من أجل ليلى .. الليل والنهار والشباب وشهادة الثقافة والنقود .. والقلب أولا وأخيرا ... كل هذه الأشياء أمانة عليه أن يحتفظ بها من أجل « ليلى » .

وأخذت الماكينة تدق .. وعندما كانت ترفع عينيها لتنظر فى إحدى الكلمات فى أعلى الصفحة كانت عيونهما تلتقى فى خطف ويتردد الكلام على شفتيه ، ويسابق نبضه نبض الماكينة ولا يذكر شيئا مما يدور فى البيت أو الدكان ، كأنما اللّه قد استجاب دعوات الجارات بعد أن وضعن أكواب الشراب الفارغة ...

ودخل فجاة أحد السعاة واستدعى ليلى للقاء الرئيس فى الحجرة البعيدة . وفجأة أيضا شعر سعد براحة غريبة تهبط عليه أشبه بالهدوء الغامض العميق بين نوبتين من نوبات ألم حاد ..

كان يريد أن يتخذ قرارا أخيرا ، يريد أن يقول لليلى : إنى أحبك أو أنى أريد أن أتزوجك أو على الأقل أراك فى الخارج ...

لكن .. أى هذه الكلمات أنسب ؟ إنه يخاف شفتها السفلى . إن تعبير الاشمئزاز أو الإعراض حين ينطبع على هذه الشفة يكون شيئا قاتلا .

ونظر فى زجاج الباب والحجرة خالية عليه ، فرأى هندام نفسه وجبينه

.. جبينه المشرف بإسراف على العينين كأنه (تاندة) تحميها من الشمس . عيناه الضيقتان المائجتان بالمخاوف والرغبات تحت هذه المظلة .. هل تستطيعان أن تبارزا عينى ليلى اللتين تكسران السيف ؟!

وعاد إلى مكانه وتنهد .. وكف عن التفكير لحظة لأنه سمع وقع خطواتها . ثم جلست إلى الماكينة بسرعة وأخذت تدق حروفها بعصبية وتعبير الاشمئزاز على شفتيها طول هذه المدة . فعدل سعد عما كان مشغولا به وأجل كل شىء إلى غد ...

* * *

لكنه سمع بكاءها فجأة .. وقفت الماكينة وارتفع البكاء ... وبطريقة هستيرية كأن صمام البخار قد انفتح .

وقام إليها بلا وعى وأخذ يسترضيها كأنما هو الذى تسبب فى كل شىء ، وأخيرا أفاق على موقف غريب .. على عينى ليلى وهى تنظر إليه بدموعها لكن الوجه كان مبتسما كله ، وعلى ثناياها بريق عذب يرد الوعى للمغمى عليه .. وقد أمسكت كتفه بيدها اليسرى ومدت يدها اليمنى نحوه بالمنديل الصغير الذى مسحت به دموعها وهى تقول له :

ـ معلش .. طيب بس .. معلش ..

كان سعد قد انخرط فى البكاء .. خانته دموعه أولا فلما شعر أنها أحست به أسرف فى تقديم القربان . ورجته ليلى بصوت هامس أن ينهى الموقف حتى لا يدخل أحد فيراهما .

ثم ظلت البسمات طول اليوم بعد ذلك تعبيرا خاشعا حنونا بين الاثنين ، تقطع المسافة بين المكتبين مثل برقيات بلا بكلمات ..

* * *

كان أبوه يأكل وهو مائل العنق فى هذه الليلة يكاد رأسه يرقد على كتفه اليسرى .. من التعب .. والأم تقشر لابنها خيارة دليلا على امتيازه فى الأسرة واعترافا بمعونته المالية لهم ، والأطفال فى مكان آخر من الشقة الصغيرة يضحكون على نكبتهم بملة السرير التى تسقط بهم كلما تحركوا عليها ...

وبمقدار الضجيج الذى كان متسلطا على الحجرة الداخلية كان هناك سكون ووجوم على الأربعة الذين يأكلون .. وشعر الأب المتعب كأن أمرا يضايق ابنه فاغتصب الكلمات وسأل :

ــ فيه حاجة فى الشغل مضايقاك يا سعد ؟

فرد الابن باختصار بارد :

ــ لا ..

وقدمت إليه الأم خيارة مقشورة سويت باعتناء :

ــ خذ يا حبيبى ..

فأخذها سعد وهو يذكر ليلى ، وعيناه مسبلتان حتى لا تفسد المرئيات أمامه صورته يوم نطقت بكلمة جميلة فأذهلته . وأخذ يمضغ بسرعة وصمت ، فعاد الأب يسأل فى قلق وغيظ :

ــ فيه حاجة فى الشغل مضايقاك يا ولد ؟

فرد باحتجاج :

ــ يا ولد ؟

ــ كبرت ؟

ــ أيوه ... و .. و .. و ح اتجوز خلاص ..

وجرحت السكين إصبع الأم وهى تقشر له الخيارة الأخرى ، وأعاد

الأب رأسه إلى وضعه الطبيعي بعد أن كان مائلا وقال له :

ـ ح تتجوز ؟

ـ أيوه .. زيك .

فقام الأب في صمت ودخل إلى غرفة الأولاد الذين كانوا يصخبون وانهال عليهم ضربا . ولم تمض دقائق حتى كان السكون قد أطبق على الشقة الصغيرة وأطفئ النور وإن كان هناك عيون لم تنم ...

* * *

ومشى كل شيء بعد ذلك هادئا رتيبا ...

كان والد سعد في الدكان مكبا على عمله في استبسال آملا أن تقوم سعاد بشيء من الأعباء التي نكل سعد عن القيام بها ، وقد أوشكت أن تخرج من مدرسة الفنون الطرزية .

والأم تدور في الشقة بحركة لا تتوقف من كثرة الطلبات ، كأنها آلة في مصب شلال .

والموظفون في مكتب سعد ينظرون إلى ليلى بحساب ويكلمونها بحساب ، لأن خطيبها جالس بالمرصاد ...

وبقدر ما كانت الصلة تقوى بين سعد وليلى كانت الفجوة تتسع بينه وبين أسرته لأنه لم يعد يعطيها مالا ولا حبا . حتى مضى على ذلك عام كامل وذهب سعد إلى بيت ليلى في زيارة عادية على غير ميعاد ، فلما دخل رأى البيت وكل شيء فيه يضحك ، والضيوف امرأة وشاب قادمان من الإسكندرية ، ومن النظرة الأولى عرف سعد من تكون هذه المرأة .. إنها بلا شك خالة ليلى ، صورة مكبرة من أمها . والذي يثير الدهشة هو لون العيون والبشرة السمراء فقد كانت مطابقة تماما لوجه ليلى وعينيها . أما الشاب فهو ابن خالتها في السابعة والعشرين من العمر ، وموظف في

أحد بنوك الإسكندرية وخريج كلية التجارة .

وكان اللقاء عائليا لكن سعد أحس بأنه أقلهم شأنا . وكانت العيون الملونة تلتقى بشكل متودد غير عابئة بوجوده .. وتطور الأمر إلى حد أن ليلى وابن خالتها أخذا يتحدثان عن ذكريات قديمة لهما حين كانت ليلى فى إحدى مدارس الإسكندرية الابتدائية وابن خالتها فى رأس التين الثانوية ، وكان يراجع لها دروسها ويضربها على يديها وأحيانا على خدها ...

ـ هل تتذكرين ذلك يا ليلى ؟

ووضعت يدها على خدها وهى تضحك ، ووضع سعد يده على خده هو الآخر كأنه أحس بلطمة ، ولم يلبث أن انصرف .

* * *

وفى الأيام التالية بلغت أحزان سعد أشدها ، فقد علم أن ابن خالتها قد انتقل إلى أحد بنوك القاهرة .. علم ذلك منها .. وقالته له باهتمام يكاد يبلغ حد الحزن .

لقد بعث الوافد الجديد فى نفسها شيئا ينغصها ، أقنعها بأنه كان ممكنا أن تكون خيرا من ذلك ، وأنه سيعيد الماضى بشكل أروع ويعاونها حتى تنال « شهادة عالية » ..

وعندئذ سألها سعد :

ـ لكننى أمانع ... أنا أرفض ذلك .

فنظرت إليه بشفقة وعيناها مليئتان بالعطف ، وعلى شفتها السفلى استصغار لشأنه :

ـ ترفض ؟.. وهل هذا من حقك ؟

فتلجلج قائلا :

ــ أنا الذى .. أنا .. الذى أسألك هذا السؤال . إن ذلك يعنى .. أننا لـن نتزوج قبل عشر سنوات .

فقالت وهى تنظر بعيدا :

ــ عدلت عن الزواج .. رجعت .. سأتعلم ...

فأحس أن دموعه ستغلبه ، وتذكر يوم بكى من أجلها فشعر أنـه سيقهر وسيبكى . وعزت عليه نفسه فعض على شفته وسألها كرجل مغلوب :

ــ وماذا سنقول .. لمن معنا .. فى الإدارة ؟

ــ لا شىء .

ــ لست فاهما .

ــ سأنتقل إلى البنك ... معه ...

فحملق فيها دامعا :

ــ أشكرك .. هذا حل موفق ... ستمهدين لى سبيل النسيان .

فردت بعطف يحمل رائحة حب مغلوب :

ــ ربما ... وربما النجاح أيضا .

* * *

كانت أمه تقشر حبة من البطاطس حين فاجأها بقوله أنه عدل عن زواج ليلى ... فجرحت السكين أصبعها مرة أخرى . ولما استردت وعيها عـددت له من البنات من يمكن أن تصلح له ؛ لكنه نادى على أخيه الثالث ولما جـاء قال له :

ــ إنك ستأخذ الثقافة هذا العام يا أخى .. وفى العام القادم ستكون فـى التوجيهية .

ــ وماذا تريد ؟ ...

ــ سنكون معا فيها .. أنا وأنت .

ثم نظر إلى أمه قائلا :

ـ سأعاون أخى بمالى وأمشى معه خطوة بخطوة وأنا فى الوظيفة أيضا .

فتمتمت الأم وقد سالت دموعها :

ـ يعنى .. يعنى .. آ ..

فقال الابن قبل أن ينصرف :

ـ سأصل أنا وإخوتى إلى ليلى وزوجها ، وسنكون فى منزلة واحدة .

وعندئذ رفعت الأم وجهها إلى السماء وابتهلت :

ـ اللّه يعمر بيتك يا ليلى أنت وجوزك .. يا رب ..

ومنعت نفسها منعا وهى تجرى نحو السلالم لتطلق من قلبها زغرودة حقيقية .

الركن المقدس

عشت أحب هذا السلاملك طول حياتى . كان فى مدخل بيت عتيق فى أحد الأحياء القديمة حيث يزدحم السكان ويتجاورون وتطول إقامتهم .. وحب بعضهم بعضا .

و لم يكن هذا « السلاملك » مسقط رأسى فقد ولدت فى مكان آخر .. غير أننى أحببته بسبب من كان مقيما فيه ، وكنت أذهب إليه فى الإجازات والأعياد والمواسم لألتقى بهذا الإنسان الذى يسكن هذا المكان . وكنت لا أحس طعم العيد — وأنا صغير — إلا على بابه أو عند ملتقى الحارات الواقعة على مقربة منه حيث تبدو البالونات .. إذ هى لون من المألوف فتبعث فى قلبى فرحة بعد فرحة .

ولأن هذا الإنسان العزيز كان مقيما فى هذا « السلاملك » كنت أهرب إليه وأنا صغير كلما وقعت فى خطأ من الأخطاء ، وهناك عند هذا القلب الكبير كنت أحس بالأمان والضمان وروعة الحب ودفء الحنان ، وأذرف الدموع الكاذبة فتتلقفها الأنامل الحنون . وأشكو أبى وأمى فى دلال الطفولة وحماسة هذه السن فتنبعث من الركن الأيمن عند الباب ضحكة مسترضية يشيع منها التحيز ويعقبها سؤال عما أطلب .. وما هى إلا دقائق حتى تكون الحلوى والنقود الصغيرة تملأ يدى وجيبى ..

ولأن هذا الإنسان العزيز كـان مقيمـا فـى هـذه الشـقة فقـد أحببتهـا فـى شبابى ، شبابى الباكر ، حين يكون كل إحسـاس عندنـا لا يعـرف التوسـط بل يسكن فى القمة . فكنت أذهب إليه ، وأفتح عليه الباب فى صمت كأنما أخشى أن أفسد عليه بدخولى أمرا من الأمور . وفى الركن الأيمن عند الباب أجد هذا الإنسان العزيـز نائمـا فـى شبه طفولتـه أو مستيقظا يسـبح اللّـه أو محتضنا طفلا من أبناء خالى أو أبناء الجيران ، وعلـى الشـفتين ابتسـامة تحمـل ذكريات عمر طويل لا يقل عن خمسة وستين عاما .

أما هذا الإنسـان فهـو جدتـى لأمـى ، وكـانت مقيمـة فـى البيـت الـذى شهدت فيه أمى ــ بالطبع ــ ذكريـات شـبابها وخطبتهـا وزواجهـا . وكـان خالى لا يزال مقيما فيه ، وصورة جدى فى جبته وقفطانه معلقة تجـاه عينيهـا تنظر إليها بعينين كبيرتين سلب نورهما الزمن ، وتسحب السبحة مـن تحـت الوسادة وتدعو له بالغفران .. !

فى هذا الركن وعند هذه السيدة طالما شكوت متاعبى ومخـاوفى ونـثرت أحلامى وآمالى ، وأنا وإن كنت قد سبقتها بحكم زمنى فرأيت نور الحضـارة ومارست حرية الرجل وسبحت فى نور العلم ، إلا أننى كنت أشعر أن هذه السيدة تتفوق على بشىء لا يكتسب بالتعليم ، فقد كـانت قـادرة علـى أن تقرأ أفكارى وقادرة على أن تشعرنى بأننى صغير ، نعم صغيرا لا أزال حتـى هذه السن التى بلغتها ــ العشرين ــ محتاجا إلى مشورتها ..

وبالطريقة التى كانت تقدم لى بهـا النقـود الصغـيرة وأنـا طفـل ، كـانت تبذل لى نصائحها ببساطة وأنا شاب ..

وهناك مشكلات كنت لا أستطيع أن أقصها على أبى ولا أمى ، وعندما

أشرع فى سردها عليها وتمسك هى بأول الخيط تحدثنى وكأنها من أندادى . عندئذ عرفت لماذا يحبها خالى ، ولماذا تشعر أمى أمامها بذوبان الشخصية . نعم ، كنت أفكر فيما أقدمه لها لقاء هذا الفيض من الحب الذى تبذله لى ، فكنت إذا سهرت جنبها فى الليالى الباردة أصر على أن أصب ماء الوضوء الدافئ بيدى على يديها وقدميها !

وأمسك بالمنشفة فأجفف أقدامها الصغيرة حتى لا يقسو عليها « الروماتزم » ، وتبتسم جدتى طيبة وهى تدعو لى ، وفى تجاه القبلة حيث كانت جدتى تتجه إلى اللّه فى صلاتها كان على الحائط لوحة زجاجية صغيرة كتبت عليها آية الكرسى بلون فضى . وكانت جدتى تقرأ هذه الآية فى بعض صلواتها أو قبل أن تأوى إلى الفراش . وكنت أنظر إلى الكلمات المكتوبة فيخيل إلىّ أنها بحروف من النور .. نعم بحروف من النور .

وكما كنت أعتبر أبى كنزا يحمينى من الحاجة وأمى قلبا يحرس هذا الكنز ، فقد كنت أعتبر جدتى هذه الروح الذى يظلل الجميع ..

آه ! نعم . لكننى كنت أخاف عليها عوادى الشيخوخة . فطالما أقعدها فى برد الشتاء ألم المفاصل ، وأرقها السعال ، وأشياء أخرى كانت تقاومها باليقين وهى تنظر بعينين وادعتين إلى صورة جدى المعلقة تجاهها فى أبهة الشباب وابتسامة لم يقهر سحرها إلا الموت ..

وفى ليلة من ليالى فبراير فتحت عليها باب حجرتها فرأيتها فى الفراش وخالى عند قدميها ، وبرزت من أحد أركان الحجرة زوجة خالى وهى تحمل فى يديها شيئا لم أتبينه ، لكن وجهها أمرنى بالخروج . ونظرت نحو الركن الذى طالما أسعد قلبى فى كل مراحل عمره فرأيت جدتى فى الغيبوبة الأخيرة فلم أطق البقاء !!

ولعلك بعد ذلك غير محتاج إلى أن أقول لك إنها قد ماتت ..

ولا لأن أصف أثر ذلك فى نفسى . لكن الذى حدث بعد ذلك وأهمنى

هو تغيير نظام غرفتها ، وعدوان الحياة على الركن الذى كانت تجلس فيه . فلم يلبث فراشها أن غاب ورفعت عن الحائط صورة جدى وآية الكرسى حيث نقلتا إلى مكان آخر ، وأصبح الشباك الذى كان نصف مغلق مفتوحا على مصراعيه بإهمال . وللمرة الأخيرة نظرت منه إلى المئذنة المواجهة له ، الناهضة فى السماء بجلال يحمل طابعا تاريخيا جميلا .. ثم .. لم أدخل هذا البيت بعد ذلك . فلقد أجر خالى هذا (السلاملك) .. استغنى عنه . وطالما وقفت قليلا أثناء مرورى بجوار النافذة المعهودة كأننى على وشك أن أسمع صلاتها أو سعالها أو نداءها على طفل ، ثم لا ألبث أن أذكر ، أذكر أنها ماتت ، وأنها ألقت على صورة زوجها المعلقة تجاهها على الحائط نظرة تبشر باللقاء . وكنت أتخيل أى قطعة من قطع الأثاث قد شغلت هذا الركن المقدس فيعجز خيالى ..

ومرت الأيام التى تنسى الناس أشياء كثيرة حتى ملامحهم الشخصية فى إحدى صورهم الفوتوغرافية القديمة !

وكبرت ، وسافرت إلى الوجه البحرى مشرفا اجتماعيا فى إحدى المدارس ، ورأيت صورا من الناس ، وكلما رأيت صورة طيبة لإنسانة بسيطة .. ذكرت جدتى ..!

ثم عدت فى إحدى الإجازات فرأيت على أمى طابع فرحة جديدة فرحة قلب كان فى ضيق وانفرج فجأة . ورأيتها بادية البشر كأنما صغر عمرها عشرة أعوام . ومن ملابسات الحديث الذى جرى فى السهرة بينها وبين أبى عرفت أن مبلغا من المال قد دخل بيتنا على غير انتظار ، وأن هذا المبلغ حل أزمة شديدة وهى الإسهام فى جهاز أختى ..!

وكانت أمى تتحدث بسعادة عن المفارش والملايات والصينى والنحاس فى الوقت الذى كان ذهنى مشغولا فيه بالتفكير فى مصدر هذا المبلغ ، حتى سئمت فسألت أمى عن القصة ، ثم ما لبثت أن اعترانى وجوم يوازن

فرحتهم عشر مرات . وكانت أمى لا تزال ترد على بقية القصة فى نبرات عادية لكنها مرتاحة ..

ــ إن بيت جدتك طلع فى التنظيم .. أصبح شارعا .. وقد أخذنا التعويض من الحكومة من خمسة أيام فقط .. رزق جهاز أختك .

فقلت بوجوم :

ــ مبروك ..

وفى اليوم التالى خرجت .. كأنما لألقى جدتى باللهفة التى كانت تدفعنى وأنا طفل ، حين كنت أذهب شاكيا أو هاربا فأعود بالحلوى والنقود الصغيرة .

حتى دخلت الحى فإذا كل شىء قد تغير بعد أن غاب بيت جدتى فى فضاء الشارع كما يبتلع البحر سفينة كبيرة . ووقفت قريبا من الزاوية ونظرت إلى المئذنة التى تنهض فى جلال تاريخى ، وخيل إلى بعد ذلك أننى طفل فقد نقوده فى التراب ..

عن ماذا كنت أبحث ؟!

عن سنوات وذكريات .. سنوات مرت كما ينقضى الحلم والذكريات كانت كلها عن جدتى ..

وبدا لى أن أعرف أين يقع بالضبط مكان فراشها القديم من أرض هذا الشارع الآن ، فذهبت إلى باب الزاوية وأخذت أقيس الأرض بالخطوة حتى وصلت إلى بقعة تأكدت أنها هى التى كانت تجلس فيها هذه الإنسانة التى لن أنساها ..

وقلت فى نفسى :

« هنا .. كانت تجلس .. وكنت أصب بيدى الماء الدافئ على يديها

لتتوضأ ، وكـانت تنظر إلى الصـورة وتدعـو لى وتنام وعلى وجهها طيبـة الملائكة » ..

وكففت .. ودمعت عينى ، وفحصت البقعة جيدا فإذا بها وقـد زرعـت فيها شجرة خضراء كان النسيم يهفو بأوراقها فترفرف وكأنها الروح .

وتنهدت وكانت الشمس قد غابت تماما . وحين رفعت بصرى ثانيـا لأري غصون الشجرة كان صوت ندى يشق المسـاء مـن فـوق المئذنـة وهـو يهتف « اللّه أكبر .. اللّه أكبر .. » .

المياه الغريبة

كانت هذه أول رحلة له على طائرة ، لم يكن يحسب أن ركوبها ممتعا إلى هذا الحد ؛ وكانت الرحلة نهارية على طائرة مصرية شتاء سنة ١٩٥٨ .

كان منظر البحر ممتعا ، واليوم صحو كأنه ربيع ، وفى الطائرة عرب وأجانب ومضيفة مصرية سمراء ابتسامتها تنسى المخاطر .

كان فى طريقه إلى مهمة ثقافيه فى بلاد المغرب سيتمها فى خمسة عشر يوما على الأكثر ، ثم يعود إلى القاهرة .

وأحس بالغربة الشديدة وهو فى الجو ، أحس بمعنى السفر مضروبا فى نفسه ألف مرة خصوصا عندما يتناهى إلى سمعه من خلال الأزيز صوت ناس يتكلمون لغة غير التى ألفها ونطق بها آخر كلماته آخر اليوم وأول تحياته كل صباح .

وبشكل ما يمكن أن نقول « سهلا » وصلت الطائرة إلى روما وانقضى جزء من الرحلة يمكن أن يكون هاما . وهناك أيضا فى مطار روما اختلفت وجهات السفر فمنهم من واصل نحو الشمال ومنهم من عرج إلى الجنوب الغربى .

ثم ما لبث أن سمع مكبر الصوت فى المطار يدعو المسافرين إلى « المغرب » لركوب الطائرة التى ستقلهم إلى هناك . وتدثر بمعطفه جيدا ولف شملة صغيرة من الصوف حول عنقه ثم دلف مع المسافرين .

ودهش عند عبور الباب أن رأى عددهم غير كثير ، وكانوا جميعا من الرجال من أجناس مختلفة ، عرب وأجانب ، وأحس بالغربة مرة أخرى وبمعنى السفر مضروبا فى نفسه ثلاثة آلاف مرة ، لكنه تنهد وصمت ، ولم يعد يسمع من شيء وهو يصعد السلم بين الركاب القلائل من الرجال ، ومن عرب وأجانب .

كانت الطائرة غير مصرية فى هذه الجولة ، لم يعد يذكر جنسيتها .. كل ما يعنيه الآن أنه لم ينس « شخصيتها » ، وكانت فى مطار روما ضائعة صغيرة كأنها جرادة فى فضاء واسع ، وخيل إليه أن هذا المعنى خالج كل الصدور . وخيل إليه عندما جلس فى أحد المقاعد أن جميع الركاب يتلفتون نحو السقف كأنهم المسافرون فى القرون الغابرة ، كانوا يبحثون عن النجوم . وحاول أن يرفع ذراعه وهو جالس ليختبر مدى قرب السقف من رأسه ، وتذكر فى هذه اللحظة الأسماك الصغيرة التى تبتلعها سمكة كبيرة .. هكذا كانوا فى جوفها .

وعندما فحص كل شيء بدأ يلاحظ الجالس إلى جواره بجانب الشباك . عرف أنه إنجليزى وربما كان ألمانيا ، ثم تذكر أن هذه الجرادة ستعبر البحر بهم فأحس معنى السفر مضروبا فى نفسه ثلاثة آلاف مرة . وجعل يوازن بين الطائرة المصرية التى أقلتهم إلى روما وبين هذه التى يركبونها ، وعندئذ ظهرت المضيفة تحمل صندوقا فيه بعض المسكرات فأحس مرة أخرى بالغربة وبمعنى السفر مضروبا فى نفسه أربعة آلاف مرة .

وأقلعت الطائرة بعد الغروب وكان طيرانها على البحر وكان الجو أكثر روعة من النهار ، لكن خفة وزن الطائرة جعل الركاب يحسون باهتزازات مخيفة فى بعض الأحيان . وكان جوها مشحونا بالأحاديث والرطنات وطلبات شتى من المضيفة ، ثم ما لبث أن اندمج كل مسافر مع أفكاره

والتقت كل الأفكار عند حدود المخاطر والجرادة تجاهد الليل والجو وبعد الطريق .

لكن كل شيء بدا مقبولا ؛ رحلة ربما اتسمت بالقسوة والمهم أن تنتهى ، فعند نهاية كل رحلة يصبح الحديث عن المخاطر ذكريات حلوة .

وتحرك الرجل الجالس إلى جوار الشباك ثم نظر نحوه ، لم يشأ المصرى أن يبدأه بالحديث و لم يشأ أن يغير مكانه ولو أن ذلك كان ممكنا .

وبدا على الرجل أنه يريد أن يجاذبه الحديث فأظهر هو استعدادا لذلك ، و لم تمض عدة ثوان حتى اتجه الإنجليزى إليه وقال فى ابتسامة بعد أن حياه :

ـ ألا تلاحظ يا سيدى أن الطائرة خلو من النساء والأطفال .

وفى ابتسامة مختصرة رد عليه :

ـ نعم .

ـ آه ... هذا يذكرنى بالحرب ، كأننا نركب طائرة حربية .

ـ صحيح ، فوجود الأطفال إحدى علامات السلام .

عندئذ أشعل الإنجليزى غليونه وبدا أنه يستعد لحديث طويل واضطجع فى جلسته ووحوح وفرط كفا بكف ، ثم تنهد وأرسل من فمه دخانا تخالطه نكهة معطرة ثم قال :

ـ السيد يبدو مصريا صميما !!

ـ أشكرك .

ـ آه . هـا اه ... اى ى ... إن الطائرة تهتز ! الآن أذكر موقعة « دنكرك » التى شاركت فيها لتخليص فرنسا من الألمان .. ها ااه .

وظهرت المضيفة فى الممر بوجه متعب سئم ، فوجه الحديث وعين إلى المضيفة وعين إلى جاره :

ـ كأس من الويسكى يبعث الدفء .. هل تشرب ؟

ـ لا ! شكرا ! إننى لا أشرب .

فقال للمضيفة وهو يضحك :
ـ حسن ! كأسين إذن : أحدهما لى .. والآخر .. لى أيضا .
وضحكا معا ، ثم أخذ يقول وهو يشرب .
ـ إن الحرب شيء كريه أيها السيد لكن .. من مزاياها أنها تعلم من يخوضها كيف يستصغر المخاطر .
وفى هذه اللحظة مرت الطائرة بمطب هوائى فشعروا أنهم يهوون إلى بعد سحيق ، كل شيء يجرى إلى تحت . واضطرب الميزان كله وما هى إلا ثوان حتى عادت الطائرة إلى مستواها الأول وأخذ الإنجليزى يقهقه ويحملق فى الويسكى لم يكن يدارى خوفا :
ـ لكن سكر البنطلون .. أوه ! ألم يكن رأسى أولى من حذائى ؟ ها اه ! على كل حال ليس هذا أفظع مما رأينا . لقد كنت فى فرق الفدائيين .. هل تسمع حكاية مسلية ؟
ـ تفضل .
فأخذ يعدل من هندامه وكأن لذلك دخلا فى ترتيب الأفكار ، وبدت على وجهه لمحة من الكبرياء ومضت وغابت مثل نجوم ما قبل الفجر . ثم قال :
ـ كان على أن أشترك فى تطهير أحد جيوب المقاومة من جنود النازية ، ولعلك ترى هيئتى .. ممكن أن أكون ألمانيا وممكن أن أكون إنجليزيا .
فابتسم المصرى وعض شفته ، ولم يلبث الإنجليزى أن أكمل :
ـ إننى أعرف ما يدور بخاطرك ، إنك تقول : ممكن أن تكون إنجليزيا وممكن أن تكون ألمانيا لكن ليس ممكنا أن تكون فرنسيا .
فضحك المصرى بصراحة وقال :
ـ صحيح ، لأنكم حاربتم ـ كما قالوا عنكم ـ حتى آخر جندى فرنسى .

على أن جاره تناسى رده ورجع إلى ذكريات « دنكرك » خيل إليه أنه يعيد أمجادا على سمع جاره لم يعرفها التاريخ بعد ، وفى الحق لو أنه تنبه وسأله عن حدث مصرى هام لما ملأه ذلك الفخر .

ولكن بعض السلع والأحاديث تلقى رواجا فى الظروف العصبية ، وفى مثل هذه الرحلة يمكن أن يكون كل شيء مسليا حتى ولو كان مناوشة أو أكاذيب ، فلم يجد بأسا من أن يستمع إليه :

ـ أرسلت أنا واثنين من زملائى فى مهمة خطرة بعد أن دلت مخابراتنا على بار كبير فى أحد الأحياء التى يسيطر عليها الألمان . كان يسهر فى هذا البار أحد قواد النازية ممن اشتهروا بالذكاء والحيلة ، وكان مقتل هذا القائد يعنى انهيار مقاومة الألمان فى هذه المنطقة وتراجعهم نحو الشرق . ها ااه ! ما أجمل الويسكى مع الذكريات فى طائرة مثل الجرادة .. آه ولبسنا ملابس جنود هتلر أخذناها طبعا من الأسرى وأخذنا نجرى فى الشارع المؤدى إلى البار على موتوسيكلات نازية ونحن مسلحون بمدافع نازية أيضا . واستطلعنا الطريق حتى إذا ما عرفنا البار أودعنا الموتوسيكلات فى عطفة مظلمة وجئنا خلف الزجاج المدهون بالأزرق وأخذنا نفرغ نار مدافعنا على من بالداخل . كان الصراخ والأنين وتحطم الأكواب والظلام الذى ساد والطلقات المضادة شيء يبعث الرعب حقيقة .

ثم قال من خلال أسنانه بلهجة مخمورة :

ـ طبعا لم تجرب هذا يا عزيزى !

فابتسم المصرى وقال :

ـ ليس من الأدب أن أقطع حكايتك لأحكى حكايتى . أكمل أيها السيد .

فمدد ساقيه حتى وصلتا إلى نهاية ما تحت الكرسى الذى أمامه وتأوه وصمت ، كأنه يستعذب طعم ما قال ، ثم أسبل عينيه وبدأ يكمل :

ـ وانبطحنا إلى جانب الحائط فى زحف يشبه حلقات السلسلة بعضنا يتبعه بعض ، وعندما ركبت دراجتى كنت أسمع ورائى طلقات وضجيجا اعتقدت أنها بيد زملائى . لكننى تبينت بعد أن عدت أننى وحيد .. ذهبنا ثلاثة وعدنا واحدا ...

وازداد إسبال جفونه وخفت صوته : واحدا ... واحدا ... من يومها لم أعد أرهب الموت .

لم يجب المصرى بشىء ؛ كان هناك شىء هام شغل الركاب جميعا حتى أيقظ السكرن من نومه . كانت الطائرة تهتز بعنف .. كانت مثل مراجيح العيد لكن الخوف فيها ليس مصدر فرح . وسمعت العاصفة على جدار الطائرة ، ولمع ماء البحر بضوء القمر فحدد الموقع الذى سينزل فيه الناس لو اختلت الأمور .

وكظم كل ما فى نفسه ولكن لم يعد بد من الجهر ، فقد سمع صوت قائد الطائرة وهو ينذر بالخطر ، ومشت المضيفة فى الممر ثم غابت تماما فى « الكابين » الأمامى وأخذت تلقى نصائح مثل وصية المحتضر :

« حاولوا السباحة إذا لامستم الماء .. من يستطيع أن يعوم واقفا فليشعل مصباحا كهربائيا فى يده لتراه السفن العابرة .. إليكم .. إنه .. لا يكمن .. الـ الـ .. آ .. آ .. » .

ولم يكن للمصرى من هم إلا أن يتدبر الفدائى الذى إلى جواره ، رأى كل شىء فيه يرتجف وصار يدمدم قائلا :

ـ لا .. لا الحرب خير من هذا ..

ـ لا داعى للصراخ .

ـ ألست خائفا ؟

ـ خائف لكنى لا أصرخ .

فات الأوان

« كانت تبكى من أجلها ، فأصبحت تبكى
منها ! .. أتراه انتقام سمـاوى من المـرأة التى
لا يعجبهـا إلا ما فى أيـدى أخواتهـا ؟ »

بعد أن يجمع الحب بين القلبـين ويدخلهمـا بيت الزوجيـة يقفـل البـاب عليهما من الخارج وينصرف ، أو يقفل الباب مـن الداخـل ويبقـى فـترة مـن الزمن !

وفى الحالة الثانية قد تطول العشرة كنفس الوضع الـذى حـدث للطبيـب وزوجته ، فبعـد مـرور خمسـة أعـوام علـى زواجهمـا كـان يقـع بينهمـا مـن الحوادث ما هو كفيل بأن يفرق بين زوجين . لكنهما كانا قـد تزوجـا علـى حب ودفعا ثمنا لذلك متاعب كثيرة ، وتنفـس النـاس الصعـداء ليلـة زفافهمـا كأن حفرة فى الطريق العام ردمتها البلدية !

وحينما نشترى الشىء غاليا نحاول أن نحافظ عليـه مـدة أطـول حتـى لـو استعصى على الاحتفاظ به ، لأننا نريد أن نأخذ منه قيمة ما دفعناه فيه . فإذا نشب الخلاف بـين الطبيـب وزوجتـه فإنهمـا سـرعان مـا كانـا يذكـران أن الانفصال شىء مضحك .

كان رجلا طيبا متوسط الحال متوسط المهارة متوسط العمـر . ولم يكـن

مشهورا بقدر ما كان محبوبا بين أهل الحى الذى يعمل فيه .

حياته منذ خمسة أعوام قبل زواجه من السيدة التى تعاشره ، كانت حياة شاب فى الثلاثين من العمر ، مستور الحال موفور الصحة قليل الطموح ، يريد أن يبنى حياة زوجية تنجيه من المهالك .. فهو لا يحب أن يعرف المرأة إلا داخل البيت .

ودله أحد المعارف على أسرة طيبة ، وارتاح الطبيب حين عرف أن رب هذه الأسرة كان صحفيا مشهورا فى وقت ما ثم أصابه حادث جعله يفقد سمعه ، وهو على الرغم من كل شىء قد أحسن تربية أولاده .

ولا يزال الطبيب يذكر بعض مقالات كان يكتبها هذا الرجل عن المشكلات وعن الحب ، وبعضها عن التعليم ، وبعضها تعليقا على الحوادث اليومية .

وفى إحدى الأمسيات تعرف الطبيب على أسرة الصحفى بواسطة صديقه المعنى بالأمر ، وجلس ليلتئذ يتأمل رجلا كان اسمه فى يوم ما على كل لسان ، وهو الآن معتكف فى بيته لا يقصد إليه أحد ممن كانوا يزدحمون فى حجرة الانتظار حتى يسمح الوقت !

ثم خرج من بينهم بقلب مرتاح فقد أعجبه رب البيت ، وأعجبته ربته كذلك فقد كانت سيدة تحسن استقبال ضيوفها على ثغرها ابتسامة متوددة تكاد تكون قبلة ، ولو أن السيدة شديدة الوقار .

وتحدث الطبيب وصديقه فى الطريق عن الفتاة الكبرى بينهما .. إن وجهها رائع ، وهى وإن كانت قليلة الكلام فإنها تنطق دائما فى الوقت المناسب .

حسنا ! فلتكن هذه إذن زوجة له .

وخرج الوسيط من الصفقة بعد أن أعلن الطبيب خطبة الفتاة الكبرى ، وأخذ يتردد على البيت على حسب ما تقضى به التقاليد .

لكنه أحس فجأة بعارض غريب .. أحس أنجذابه نحو أختها فتذكر حوادث حكاها الناس من هذه القبيل ، وكان يسمعها فى ذلك الوقت باستغراب الرجل الذى يرى أن المبادئ أقوى من الميول ، وأن العقائد أقوى من الغرائز . فلما شعر فى تلك الأيام بأنه شخصيا على وشك أن يكون مادة للتجربة خفق قلبه فى ذعر ، فأغمض عينيه وسد أذنيه .. ثم خرج من البيت .

* * *

وفى المرة التالية حاول أن يغيب عنهم مدة أطول ، ولم يلتق بالفتاة الصغرى ليلة زارهم لأنها كانت فى الخارج .. وأحس بكمد أشد مما كان يتوقع ، وظل بمجلسهم خاليا من الروح فارغا من الدعابة ، عليه خمول يوشك أن ينقلب نوما !

والحب وليد ينمو بسرعة شيطانية تذكرنا بحكاية الغيلان فى الخرافات والأساطير ، وقد كان قلب الطبيب أرضا بكرا صالحة للزرع وليس عليها حارس ، وهو بعد ذلك ضعيف الحيلة تبدو نزعات نفسه منطبعة على وجهه وفى بريق عينيه .

ولم يكن الموقف بين الأختين مما تسهل فيه الصراحة ، كانتا فاهمتين فى صمت . والأم لم تكن قادرة على أن تفعل شيئا بعد أن نهت الصغيرة عدة مرات وطالبتها أن تكون أكثر حيطة وأقل مرحا وعرضا لشخصيتها فى حضور خطيب أختها ، لأن فى ذلك من الأضرار ما يقصر عقلها من إدراكه . وضاع نداؤها فى الهواء ، وثارت فى البيت دوامات صغيرة خصوصا بعد أن عرضت الأم على الطبيب ذات ليلة رغبتها فى عقد القران .. فسوف الطبيب .

وبدأت المخاوف تجتاح نفسها ، والذبول الساكن والاحتراق فى صمت يعملان فى جسم الفتاة الكبيرة حتى بلغ بها الأمر إلى حد أنها استحت أن

تقابل خطيبها ، فلم يعد فيها إلا روح تخفق وعينان تنظران فى قلق .. وحبل الحديث بينهما إذا اجتمعا كان ينقطع من أول جذبة .. وأخيرا ، أخيرا لم يكن بد من انفصالهما .

* * *

و لم تشأ الأقدار أن تبالغ فى عذاب الفتاة الكبرى التى تناولت شئون حياتها مع الرجل الذى افترقت عنه ببساطة وطيبة قلب ، فقد هيأ اللّه لها من تقدم إليها وأسعدها فى صفو وحب فى الوقت الذى كان فيه الحب بين الطبيب والأخت الصغرى فى نوبة إغماء ، لأن الحوادث التى وقعت خلال فسخ الخطبة جعلت رغبات حبهما تلوذ إلى كهف الحياء ، ولعلها كانت فى انتظار اعتدال الجو لتعود مرة أخرى إلى الظهور .

وفى مساء إحدى الليالى بعد انقضاء ستة أشهر على افتراق الخطيبين ، دخلت على الطبيب فى عيادته فتاة كانت آخر زائرة جاءته ، وارتجفت أوصاله وتغيرت ملامحه وأدرك أن الذى بينه وبينها لا تستطيع أية قوة أن تسيطر عليه ، كان حبهما فى الحقيقة قائما على أشلاء سعادة ناس آخرين لكن الجوعى يأكلون الميتة ، وكثيرا ما تكون الميول أقوى من المبادىء !

واتفقا على أن يتزوجا لأن الأخت الكبرى على وشك أن تنتقل إلى بيت زوجها الجديد .

ـ حسنا وماذا يكون رأى الوالدين !

وألقى عليها هذا السؤال فى الوقت الذى كانت هى تفكر فيه . وباحت له بأن أمها هى التى شجعت أختها على فسخ الخطبة ، كأنما رأت أن خير حل لموقف المتنازعين هو إبعاد الغنيمة ما دامت الغنيمة غير قابلة للقسمة . إنه من تدبير الأم وتنفيذ الفتاة .

ثم جرت على خدها الشاحب دمعة من عينيها النجلاوين ، وبدا جسمها الضئيل كأنه يهتز اهتزازا وهى جالسة لفرط ما تجيش به نفسها .

على أن موقف الوالدين لم يكن إلا حيرة وارتباكا حين انبعثت المشكلة فى بيتهما بصورة جديدة ، لأن اعترافهما بالواقع ـ حين علمـا بـه ـ يحمل فى طياته رضاهما عن المقدمة القبيحة التى أدت إلى هذا الواقع . ثم إن عـدم اعترافهما به لن يكون أبدا سببا كافيا لإزالة أثاره ، فقد تركب هذه الطائشة رأسها وتفر إلى الطبيب لأنها لم تكف لحظة واحدة عن تغذية العلاقة القائمة بينهما على الرغم من الزوابع والوساوس وكلام الناس !

وبعـد ليال من السهر والفكـر أعلنت الأم ذات صباح رأيها لزوجها قائلة :

ـ إنه زواج ، أليس كذلك ؟ زواج على كل حال ! كل ما نملكه هو أننا لن نباركه فليتزوجا إذن !

وأسدل الستار على قصة الفتاتين بعد عام من بدء الحوادث ، وجمع الحب بين قلب الطبيب وفتاته ودخل معهما بيت الزوجية وأقفل الباب من الداخل وعاش فترة من الزمان . وظلا يحاولان أن يقفلا النوافذ على دخان الخلاف كلما ثار حتى لا يراه الناس خارجا من بيتهما وحتى انقضت خمسة أعوام .. وكان الزوجان فى فراشهما والأزمة بينهما بالغة منتهاها :

ـ تزوج لن أغضب منك . حرام أن أحرمك من الولد وكفى ما سببته لك من المتاعب !

وبكى الرجل وبكت هى ، وبات السؤال بلا جواب حتى اليوم الثانى .

وفى الليل بدا للزوجة التى سرها إعراض رجلها عن طلبها للضرة ، بدا لها أن تتأكد من قوة الرفض وحقيقته وليس لذلك من وسيلة تمنحه بها إلا الإغراء بالزواج مرة أخرى !

وفى النهاية حز الألم فى نفسها حين شعرت فى الظلام بأن معارضته لم تكن فى قوة الليلة الماضية ، ونحن هكذا .. نهب الكثير إذا كنا واثقين من رفض الهبة ، ونحزن فى صمت إذا خاب ظننا وقبلت الهبة التى كانت

فوق طاقتنا !

وباتت الزوجة تكفكف دمعها فى سكون مع أنه كان غارقا فى النوم طول الليل ، وغشيت حياتها سحابة من البؤس والانقباض . ولاحظت بعد فترة طويلة أنه يتأخر فى الخارج ، وأن عطرا وحيوية تفوح من شبابه المتجدد ، وأن إعراضا يطول مداه يظلل علاقتهما ، وأن هزات تمثيلية حادة عنيفة تنبع فجأة من خلال هذا الركود لكنها لم تستطع إلا أن تشك وتسكت . وماذ تصنع ؟ لم تجرؤ على مفاتحته مرة جديدة فقد اعتراها خوف شديد من أن يوافق ، فأجلت القضية وتركت النار تحت الرماد .

ثم عادت الأمور بعد ستة أشهر أشد عمقا وسكونا وربما .. خمودا . وأخذت الزوجة تحس وحشة كبرى عزتها فى فترة من فترات الليل الساكن الموحش البغيض إلى أنها انتقام سماوى ، جزاء تحطيمها قلب أختها وإثارة القلاقل والعواصف فى جو فرحها .

« كان الرجال كثيرين » .

هكذا قالت فى نفسها وانخرطت فى البكاء ، لكنها كانت مثل الطفلة التى لا يعجبها إلا ما فى أيدى أخواتها ؛ واسترسلت تبكى . كان قلبها مستشعرا هما غامضا كدخول الليل على المريض ، تماما !

* * *

سألته ذات ليلة وهى تغرق وجهه بالقبلات :

ــ آه ! ألم تشعر يا عزيزى أننا محتاجون إلى أطفال ؟

فذعر ولكنه لم يتكلم ، ولم تشعر هى بذلك لأنها كانت منغمسة فى أفكارها فاستطردت :

ــ آه يا حبيبى ، لقد ظهر لى كل شىء . لقد عرفت حقيقة نفسك .. أنت ..

فذعر و لم يتكلم ، و لم تشعر هى بذلك مرة أخرى لأنها كانت غارقة فى خواطرها واستطردت :

ــ ما دمت تريدنى هكذا ، وذلك .. لقوة حبك ، فلماذا .. لماذا .. لماذا لا نتبنى طفلا أو طفلة ؟!

وولى وجهه إلى الخلف وهى رابضة عند صدره كأنها قطة ، وتنفس تنفسا عميقا ونظر إليها وهو يبتسم ، فقابلت ابتسامته بضحكة رضا ؛ لكنه هز رأسه وقال لها :

ــ أنا أريدك هكذا .. والأطفال ستتولى أمرهم امرأة أخرى ! (و لم يدعها تسأل) .

ــ نعم إنها حامل . ألم تلحى على فى الزواج ؟ بنفسك ، بلسانك . هل نسيت بالنهار ما قلته بالليل ؟ إنها مسكينة ولن تزحمك فى شىء ، ستكون خادمة لك . لماذا تبكين ؟ هذا مخيف . إنها الفتاة التى عاشت وحيدة بعد موت أمها العجوز ، مريضتى .. فقد كنت تبكين من أجلها دائما ، والليلة تبكين منها ؟ ستعيش هناك بعيدة عنك على كل حال .

فأجابته ودمعة كبيرة عالقة بذقنها ودمعة أخرى كانت تجرى على عنقها :

ــ وإلى أين أذهب ؟ فات الأوان .

وأطفئ النور .

أرواح

كــان قطـار الإسـكندرية القـادم إلى القـاهرة هـذا المسـاء غـير مزدحـم بالركاب ، فقد كنا فى النصف الأول من شهر سبتمبر ومعظم المصيفـين قـد عادوا ، فضلا على أن هذا القطار السريع كـان قـد سـير حديثـا عـن طريـق مديرية التحرير ، ولم يكن شأنه قد عرف لكثير من رواد المصيف .

ومن محطة ريفية صغيرة من تلك التى يقف فيهـا القطـار ، صعـد مسـافرا إلى القاهرة شاب فى حدود الثلاثين من العمر لم يكن يحمـل معـه إلا حقيبـة واحدة متوسطة الحجم ، وكان فى حركته خفة وفى وجهه قلق . واتجه فور صعـوده إلى أول مقصـورة صادفتـه ودخـل حيـث ألقـى حقيبتـه علـى أحـد الرفوف ثم جلس يفكر .

لم يكن النور فى المقصورة ساطعا . كـان يشـع علـى أرضهـا وكراسـيها بنسب متفاوتة متقطعة قد تكون فى بعض أحيان قريبة من حد الظـلام ، ثـم ينسكب أحيانا أخرى فى أشعة وهاجة . وكان الشاب يحمل معه صحيفة « المساء » يكب على قراءتها كلما سطع النور ثم يطويها كلما خفت .

وكان فى حقيقة أمره شاعرا وهو فى المقصورة أنـه وحيـد ، لأنهـا علـى سعتها لم يكن فيها معه إلا راكب واحد متقدم فى السن لعله فى الستين مـن العمر ، أخذته غفوة من النوم فاستسلم لها فى طمأنينة مسافر لا متاع معـه ، وتعب رجل كثير السفر حتى أنه لم يشعر بدخول الشاب عليـه ، فقـد كـان

نائما ساعة توقف القطار فى هذه المحطة و لم يوقظه من نومه حتى انسكاب النور على وجهه الأبيض البشرة .

كل شىء فى الصحيفة التى مع الشاب كان مملا . إنه لا يكاد يجد ما يسليه على السفر حتى ولو كان فى القطار ملهى . إنه مهموم يعانى إحساسا نفسيا حادا لم يعانه من قبل نحو زوجته ، وها هو ذا عائد إليها فى القاهرة بعد أن قضى إجازة قصيرة فى الريف كان يستعيد فبها الخلافات بينهما فبجدها فى نفس الوزن الذى كانت عليه وهما معا قبل أن يتركها ويسافر .

ولذلك شعر الشاب بضيق شديد ، وأحس بذلك الشعور القاتم الكريه .. أحسه للمرة الأولى فى حياته ، شعور الحب حين يتحول إلى نوع جديد من المشاعر لا يمكن أن يسمى كرها ولا نفورا ، ولكنه فى حقيقته شىء جميل قلب فجأة كحسناء تقف على رأسها فلا يمكن أن تراها العين مهما كانت راضية على أنها تلك الحسناء المألوفة التى تقف على قدميها .

هكذا بدا له موقفه مع زوجته التى عاشرها خمس سنوات وأنجب منها غلاما سنه ثلاث سنوات ، ومع نسيم الحقول وحفيف حركة القطار وخفوت الضوء شعر كأنه يريد أن ينام . مدد ساقيه بعد أن أقفل باب المقصورة ، لكن حركة إقفال الباب أيقظت ذلك الرجل النائم فى أحد أركانها وكان النور خافتا للغاية . فأخذ يفرك عينيه ، ويتلفت فى كل اتجاه كأنه يريد أن يتذكر أين هو . ثم سأل الشاب فى صوت لم يخل من وخم النوم قائلا :

ــ فى أى محطة نحن الآن يا بنى ؟

فرد الشاب بطريقة من يريد ألا يتمادى فى الحديث :

ــ فى الخطاطبة .

وعندئذ تمطى المسافر البدين ومدد ساقيه وفتح صدره وهو يرفع ذراعيه

إلى أعلى ويتأوه فى لذة من استراح من طول النوم ، ثــم أخـذ جلسـة عادية وأقبل بوجهه على النافذة المفتوحة التى يتدفق منهـا نسيم ليـل سـبتمبر أقبـل مثل ظمآن يشرب .

و لم يمض على ذلك دقائق حتى عـاد النـور إلى السـطوع ، فرفـع الرجـل وجهه إلى سماء المقصـورة وابتسـم ابتسـامة راضيـة لمعت معهـا أسـنان تبـدو صناعية نظيفة ، ثم قال مخاطبا الشاب :

ــ وكم ساعة من هنا إلى القاهرة ؟

فرد الشاب :

ــ ساعة ونصف على الأكثر .

ثم سكت وبدا له أن يسأله :

ــ هل لم يسبق لك السفر من هذا الخط .

قال الرجل فى هدوء شديد ، هدوء يمثل صاحبه ، حى يبدو عليه الذكاء وسلامة التفكير ، خصب مثل هدوء المزارع . قال الرجل للشـاب ردا علـى سؤاله :

ــ لا ، لم أسافر قبل ذلك من هذا الطريق (وتنحنح واستطرد) تـأخرت عن قطارى المعهود فأشاروا على بهذا القطـار . (وابتسـم) شبعت نومـا . عظيم ! مقصورة كأنها غرفة متحركة . لا بأس فأنا لست محتاجا للوقت .

وأخرجت كلمة « الوقت » الشاب عـن حيـاده . شـعر بميـل إلى نقاشـه فقد كان للوقت عند هذا الشاب قدسية خاصـة ، لكنـه أراد أن يسـاله فـى تلطف عن عدم اهتمامه بالوقت فقال له :

ــ لعلك فى إجازة وتريد أن تستريح ؟

ضحك الرجل ضحكة قصيرة بيضاء لمعت بها ثناياه ونور المصباح يـزداد انسكابا فى هذه الوهلة على كل ما فى المقصورة . غير أن ضحكتـه كـانت

تعنى أن يقول بها للشاب : « آسف فقد قصر إدراكك عن فهم قصدى ، ثم رفع الرجل صوته يرد على الشاب :

ـ نعم أنا فى إجازة . ليس هذا هو السبب الحقيقى لعدم اهتمامى بالوقت بل لأننى سأذهب إلى بيتى فى القاهرة فلا أجد فيه أحدا من أفراد أسرتى . (وضحك) ولذلك ترانى أشعر وكأنى قادم على غربة .. خائف من الوقت .

أحس الشاب أنه أمام قلب مخصب فصمت ، زم شفتيه وأخذ ينظر إليه ، رأى على وجهه المكتنز .. رضا إنسان متفاهم مع كل شىء حوله ، حتى النسيم الذى نشط فى هذه اللحظة داخلا من النافذة لم يخف بل ترك له صدره المفتوح فاهتز قميصه الصيفى . وخيل إلى الشاب أن هذه الرجل لا يمكن أن تعيش المشاكل فى قلبه أو عقله إلى مدى طويل ، إنها تتآكل أو تتحلل فى تيار إرادته وروحه حتى كاد الشاب يتمنى أن يبادله العمر . ثم تذكر زوجته والخلاف الذى استقرت أركانه فى بيتهم عدة أسابيع بسبب أن كلا منهما مشغول ، وكل منهما يعود آخر اليوم من عمله جسما بلا أعصاب ، وبدل أن يقدر المتعب موقف المتعب كما يحنو المريض على المريض يتصور كل منهما فى الآخر أن بقية الطاقة عنده أكثر من الآخر فتثور مشاكل هى فى حقيقتها فى وزن الفقاقيع ، غير أن النفوس وهى متعبة تستثقل احتمال فقاعة .

ووقف القطار فى محطة أخرى يغطى الظلام جوها ، فسأل الرجل عن اسمها . وعندئذ حملق الشاب ورد عليه قائلا :

ـ إنها تهدئة فقط لبناء قنطرة فى الطريق ..

ثم استطرد الشاب سائلا :

ـ لكن اسمح لى ، ما دمت فى إجازة وأسرتك معك فى الإسكندرية فلماذا أنت مسافر ؟

فقال الرجل فى هدوء لم يخل من اعتزاز :

ـ لأطعم أرواحا فى مسكنى .. ثلاثين روحا يا بنى .

فهتف الشاب هامسا :

ـ أرواح ؟ ثلاثين روحا ؟ آه فهمت ؟ لعلها طيور ؟

فرد الرجل من خلال ابتسامة :

ـ نعم ، فأنا أهوى تربية العصافير والحمام ، ولذلك فإن فى إحدى شرفات مسكنى عددا منها . هأنذا متجشم عناء السفر من أجلها . ألم يحدث لك أن وقعت فى مثل هذه الهواية ؟

ضحك الشاب قائلا :

ـ لا يا عمى ، فقط وقعت فى هواية تربية الأطفال ، فأنا أحب ابنى .. و ..

فقاطعه الرجل :

ـ أوه ! ليس عندك فكرة كم أحب ابنى الصغير ، أصغر أولادى الآن . إن عمره عشرة أعوام . الكل تزوجوا وبقى هو .. هو وأمه والطيور . هذه الأرواح تؤلف عالم الأنس والسعادة لنفسى ، وهذه اللفافة التى تراها على الرف فيها غذاء للعصافير اشتريته من الإسكندرية لأننى سأصل ليلا كما ترى .. وأخاف عليها من الجوع .

أحس الشاب أن عليه أن يبدى أى ميل إلى حب الأشياء الجميلة ولو مجاراة لزميله ، فأخذ يفتش عن هواياته قديما فلم يجد شيئا إلا كرة الشراب التى كان يلعبها وهو صغير طفل يعبث فى حقول القرية ، كأنما استنكف أن يكون بلا هواية فقال للرجل :

ـ اقتنيت زوجا من الكناريا وضعته فى قفص ، لكن .. حدث أن طارت الأنثى وأنا أفتح الباب ، ثم ما لبث أليفها أن مات بعد ذلك بيومين .

فبدا الحزن على وجه الرجل وجعل يتحدث عن الوفاء في الطيور وعن أنه هو وزوجته كانا يتلقيان الوفاء وإن كان لا ينقصهما مما يربيان من طير أو حيوان . ثم سكت ومصمص شفتيه ثم قال للشاب في مرح وبشاشة :

ــ وأنا صغير في مثل سنك . شاب هكذا فرح بحياتي ، دخلت على زوجتي وأنا أحمل كلبا صغيرا لكي تربيه . فلما رأته أغرقت في الضحك وقالت لي : لكل منا هواية ، فأنا اليوم قد اشتريت عشرة كتاكيت . فلتعش هذه الأرواح معا .

ومضى الرجل يقول : لكن الكلب عاش وكبر وماتت الكتاكيت جميعا إلا واحدا كان ديكا جميل الشكل . وأنت يا بني ستفهم أن الصداقة قامت بين هاتين الروحين لكن كان لكل منهما طبعه .. مثلنا نحن البشر . فقد كان الديك عدوانيا ينقر صاحبه بقسوة حتى خفنا على عينيه ، ولكن الكلب كان يأخذ رأسه في فمه ويعضه برفق كأنما ليطلعه على مدى قوته .

واستطرد الرجل وكأنه يتحدث عن ذكريات طفولة قائلا :

ــ لكن حدث لأمر ما أن اعتلت صحة الديك فذبحناه .

وعند ذلك سكت الرجل كأنما انتهت الحكاية . ونظر إليه الشاب فإذا على وجهه علامات اشمئزاز قرر الشاب بينه وبين نفسه أن هذا الرجل ذو إحساس شاذ ، فليس معقولا أن تكون هذه الذكرى سببا في هذا المظهر . ومضت دقيقتان وكأنما نسي الرجل الحديث لكنه عاد فقال :

ــ لا تؤاخذني .. فأنت تعرف بقية القصة . فماذا عسى أن يحدث بعدما يفقد صديق صديقه ..

قال الشاب :

ــ لابد أن الكلب مات حزنا لأن جنسه مشهور بالوفاء .

فنظر الرجل بعينين عاتبتين وقال :

ــ لا .. الذى حدث أنّا وضعنا الديك بيننا بعد أن طبخناه فلم نجد

فى نفسنا شهية له . أهملنا لحمه من الغداء إلى العشاء إلى الغداء التالى ، ثم فهمنا موقفنا وهو أننا لا نأكل أصدقاءنا حتى ولو كانوا طيورا ، فقلنا هناك حل واحد ...

هل فهمت ؟

كان الشاب محملقا دهشا بشوشا فقال ردا على الرجل :

ـ معقول .. جدا .. قدمتم لحمه للكلب فلم يأكله أيضا ؟

إن الكلاب مشهورة بحاسة الشم . أنفه دله على صديقه . عرف أنه لحمه يا سلام !

ـ هذا هو ما حدث . ومن أجل ذلك فإن الوفاء فى بيتنا هو المعنى الأول والذى أدعو إليه .. أرواح فى القاهرة أوحشتنى وأرواح فى الإسكندرية أوحشتنى . ليس هناك فرق بين أن يخف للقائك طائر أو طفل .

الحياة خصبة يا بنى ... (وضحك) .

وضحك الشاب ، كان قلبه قد اغتسل من كل ما به . فذكر أسرته وأحس إليها بحنين لم يشعر به من قبل .

حب لوجه الله

لا أستطيع أن أجزم بأنى كنت أحبه ، ولا أستطيع أن أنفى أننى كنت أميل إليه ... والسبب فى ذلك ـ وقد أدركته بعد أن اكتملت تجربتى ـ هو أن الفتاة بفطرتها محدودة القدرة على تمهيد طريق الحب أمام الفتى الخجول .

كنت طالبة فى الجامعة فى ذلك الحين فى السن التى تكثر فيها الأحلام والدراسة والحب والتطلع ، وتتلاحق فيها الأمانى وتتزاحم ، وقد تتناقض ، وقد تجتمع المتناقضات منها وقد يلغى بعضها بعضا . لا شىء يستقر فى فورة هذه السن ، وإذا استقر شىء كرهناه واعتبرناه ركودا مثل الرسوب فى الامتحان سنة أو سنتين أو الإقامة فى مدرج لا يتغير .

ورأيت أمى امرأة تحب أبى وكان الحب عندها مرادفا للطاعة ، والطاعة التى لا تعرف جدالا وتجعل الخدين يتوردان وهى تكتم الحجة التى تستطيع أن تقهر بها حجة أبى فى بعض الأحيان . كنت أرى هذا فى بيتنا وأنظر إليه ـ وأنا الطالبة فى الجامعة ، نظرة مهندس اليوم إلى الشبابيك ذات المشربيات ، أراه شيئا لا لزوم له . وأحيانا .. كنت أحس أن التنازل فى الحب عن بعض الحقوق عمل لا يخلو من اللذة ، يشبه الركوع ولثم أذيال الثوب والميل لتناول المروحة أو المنديل حين يسقط من يد (البطلة) وأعادته إليها فى تعبد ، فى أحد أفلام أوائل هذا القرن ... وحتى هذه اللحظة لم أكن أحس بأننى أحببت ...

كنت أعقص شعرى أمام المرآة قبل خروجى إلى الكلية ، وأرقب تفتح شبابى فى تأمل صامت ، والبيت من حولى يملؤه حنان واستقامة وجدال فى كل مناسبة حول مهمة المرأة الجديدة ، وتقليب أمى لكفيها فى تسليم يائس لحكم التطور وتغير الدنيا . وكم من مرة من المرات اختليت بها فهممت أن أسألها :

ــ ماما .. ألم يخفق قلبك بالحب مرة قبل أن تتزوجى أبى ؟ !

لكننى كنت أوثر الصمت وأستعظم السؤال لأننى لا أعلم أنها تزوجت على حب . بالعكس كان الزواج على حب فى زمنها أمرا نادر الوقوع محفوفا بالمخاطر . إذن فإن أمر « ماما » لا يخلو من أن يكون أحد شيئين : فإما أن يكون شبابها خاليا من خفقة الحب ، وإما أن تكون هى تزوجت غير الذى خفق قلبها بحبه ...

واستبعدت ذلك الأمر بحكم شبابى وتطور الزمن فحاولت أن أجد موقعا متوسطا بين الاثنين ، فوصلت إلى أن الخفقات العابرة التى تمر بقلوبنا كما يمر النسيم بين أوراق الشجر لا يمكن أن تعتبر تجربة ذات وجود تنغص على الفتاة راحتها فى بيت الزوجية . وعندما وصلت أفكارى إلى هذه النقطة برز أمام عينى وأنا ألف القماط على بطن طفلى الأول صورة شاب كان معى فى الكلية و لم يقسم له أن يتزوجنى . وإذا أطلت ذكرياته على حاضرى لأية مناسبة فإنها عاجزة الآن عن أن تهتز فى بيتى حتى هداب الستاير .

* * *

لم تكن أمى صديقة لى فلم أجرؤ على أن أبوح لها بمشكلة من مشكلاتى . ولعلها كانت كبعض الأمهات اللاتى يظنن أن الريح التى تهب على كل البيوت فى الحارة عندما تجىء إلى بيتنا تمر فى صمت فلا تمس فيه نافذة ولا حجرا لماذا ؟ لا لشىء إلا لأن الأمر فى ذهنهن بديهى لا يحتاج إلى مناقشة .

لكنني يجب أن أعترف أن أمي حصنتني من الحب بما كانت تبثه فى قلبى من مخاوف عنه . كانت تجزم بأن « الشيطان ثالثهما » دائما ولا يمكن أن يقف بين الرجل والمرأة ملك طاهر يضع يدا على صدر كل منهما . فلما تفتح شبابى وعشت فى معترك الدراسة صرت ميالة إلى نوع من العزلة ، ولكن مسحة الجمال التى كست وجهى كانت تقذف بى دون أن أحس فى صميم الدوامة ، وكنت قد توصلت فى ذلك الوقت إلى تعريف للحب على هدى ما قرأته من روايات وما سمعته من حكايات وما شهدته من حوادث . وأيقنت تماما أننى لن أعتبر نفسى محبة لأى إنسان إلا إذا ظهرت على هذه العلامات مجتمعة : « الأرق والشرود وفقدان الشهية » ...

وساءلت نفسى وأنا أقلب صفحات كتاب وبسمة صغيرة مرسومة على شفتى :

ـ طيب .. ولماذا هذه العلامات كلها مجتمعة ؟.

وكنت خلية القلب فحاولت أن أصل إلى تعليل ، وصرت أعدد هذه العلامات بصوت مسموع :

ـ الأرق .. والشرود .. وفقدان الشهية ؟

ثم قلت :

ـ آه .. لأن الحياة لا تلبث أن تتوقف بالنسبة إلينا إذا ظهرت علينا هذه العلامات ، إنها العطب الذى يلحق الثمرة الجميلة . لكن العلاقة بينى وبين زميلى الطالب لم تسبب لى شيئا من هذه الأشياء .. هل يكفى أن نعلم أن إنسانا ما يحبنا لأن حركاته وقسمات وجهه تنم عن ذلك كلما يلقانا ؟ وهل يكفى ذلك مبررا لكى نبادله الحب ؟ بالنسبة إلى لم يكن ذلك كافيا . كنت أرى اضطراب نظراته ورعشة أصابعه واختلاجة شفتيه حين يلحق بى فى الطريق ، وكثيرا ما أكون وحدى ، حتى إذا ما وازانى نطقت عيناه بالحب

وتكلم لسانه عن أشـياء أخـرى .. عـن دسـامة المحاضرة أو عـن تفاهتهـا أو التعليق على الحـوادث اليومية التى تقع فى مدرجات الكلية .. وسـرعان مـا تنصب مادة الحديث فتتوقف شفتاه وتكثر نحنحته . فهل كان يريـد منـى أن أســأله : هـل تحبـنى ؟ فيـكون جوابه : نعم . وينتهـى الإشـكال بالنسبة إليه ؟!

وخطر لى خاطر عجيب بينى وبين نفسى كيف لم يخطر علـى بالـه لأنـه بسيط يستطيع كل إنسان أن يقدم عليه .

ومر أسبوع لم أره خلاله فقد كان غائبا عن الكليـة ، وهممـت أن أظـن أنى سوف أحبه لأننـى شـعرت بغيابـه ، حتـى إذا جـاء رأيتـه طويـلا هزيـلا كالبعير النحيف يمشى على ساقين يلف حولهمـا البنطلـون . ودخـل المـدرج آخر الداخلين وكنت فـى الصـف الأمـامى فاسـتطعت أن ألقـى عليـه نظـرة وكتمت فى نفسى ألما عليه . وتصورت أنـه كـان مريضـا لقلـة النـوم وفقـد الشهية . وعــدت أســـــأل نفسـى : لمـاذا لا يكتـب إلى رسـالة يخـرج مـن المأزق ؟

وفى نهاية اليوم نفسه حـدث مـا كنـت أتوقعـه ، فقـد بـرز لى مـن أحـد منعطفات الطريق فى البقعة التى يعلم أننى أكون فيها وحيدة وانفصلت عنـى الزميلات ، وفى صمت ورعشة وصفرة اقترب منى ووضع بأطراف أصابعـه فى أحد جيوبى الخارجية ورقة مطويـة ثـم تركنـى وحـث خطـاه فـى مشـية متخلعة كمشية البعير النحيف . فهممت أنادى عليه وأفهمه بعنف أنه مخطئ .. مخطئ فى استعمال المفتاح الذى يمكن لأى شاب أن يفتح به قلب فتاة .

ولكننـى تحسسـت الورقـة وانتحيـت بهـا ناحيـة وهممــت أن أقرأهــا ، وكــانت أول رســالة أتلقــاها فـى حيـاتى فزاغـت الحــروف وتداخلـت الكلمات . وفى الليل بعدما هجعت الأسرة قرأت كل مـا فيهـا .. ثـم .. لم أملك نفسى فأشعلت فيها النار وحولتها إلى رماد .

لم أجد فيها شيئا أعده خسارة . مما لا شك فيه أنه عبر عن هواه لكنه استثار شفقتي عليه كأنه يتوسل ، وكل شيء يمكن أن يعطى لوجه اللّه إلا القلب . وكنت أركب كلماته الذليلة على وجهه المتضرع فلا أرى فيه معنى يسبب الأرق أو الشرود أو فقدان الشهية .. وصممت على أن ألقنه درسا قاسيا عندما ألقاه وأن أقول له : كان يجب أن تستثير فضولى ولهفتى لا أن تستثير عطفى وشفقتى .

لكننى فى اليوم التالى نسيت كل هذه الأشياء .

وغاب الزميل أسبوعا آخر ، وفى خلال هذا لأسبوع حدث فى بيتنا حادث نادر ..

كان البيت ساكنا تماما حين سمعت نقرة أمى على باب غرفتى وأخبرتنى أن ابن خالى يريد أن يسلم علىّ . وكان ابن خالى هذا موظفا شابا أعزب نقل أخيرا إلى القاهرة ، نعرف دخلته فى البيت عندما تتردد فيه الضحكات العالية ، ولم أكن رأيته منذ أربع سنوات .

وعندما وقع بصر كل منا على الآخر هتف بلا وعى :

ــ لقد كبرت !

وضحكنا وضحكت أمى معنا ..

ثم جلسنا نحن الثلاثة وأخذ يتفحص بشىء من التهكم كتبى الجامعية التى كنت أعتز بها وأضعها فى موضع التقديس ، خصوصا وأننى كنت فى السنة الأولى فى عنفوان أحلام طالبة ترسم لنفسها مستقبلا زاهى اللون . ثم جعل يذكرنى بما فات أيام كنت فى المدرسة لا أفرق بين « المنيا » و « ألمانيا » وأنه حين سألنى عن عواصم الوجه القبلى أجبته بأن « برلين » هى عاصمة « المنيا » وأغرقنا فى ضحك شديد ، ثم قلت له ولكننى اليوم طالبة فى الجامعة ، وعندما أكون من الخريجات سأجوب عواصم العالم كلها ، فقال ببساطة :

ـ لا ضرر ، لكن .. هل تعرفين آخر عاصمة ستحطين فيها رحالك وتستريحين ؟

ـ لا .

فضحك فى استخفاف وقال :

ـ إذن فأنت لا تعرفين شيئا . ها .. أتريدين أن تعرفى ؟ آخر عاصمة هى : « البيت » .

وأطرقت أمى نحو الأرض وتورد خداها كأنها تكتم حجة ، ونقلت بصرها بيننا كأنها تزن شيئا فى ذهنها .. ثم استأذن خشية أن يعطلنى وفرك أصابعى وهو يسلم على ....

وفى الأيام التالية لم أفكر فى صاحب الرسالة ، على أنه ظل غائبا ولعله كان مريضا . وامتلأ البيت بالضحك المرح ذات مساء فعلمت أنه حضر ، وكنت أتابع ضجيجه وأتوقع أنه سيأتى ليسلم على ، فلما غاب تعللت بشىء ما وخرجت إليه ، وتلقانى بالتهكم الحلو والسؤال على حدود برلين :

ـ هل تعلمين أن « القصب المنياوى » يصنعون منه « البيرة » فى « برلين » ويصدرونها إلى « أسيوط » ؟

وارتفعت ضحكاته وأحسست أننى صغيرة جدا بالنسبة إليه ، وأن فى استطاعته أن يضحكنى ويبكينى ، ويقول لى أن خضرة إحدى عينيك فى لون البسلة وسواد عينك الأخرى فى لون الظلام ، وأنت على الرغم من هذا جميلة .. وأصدق !

وكان واضعا رجلا على رجل ناظرا إلى باعتداد شديد يستمع إلى حديثى متربصا لخطئى تربص الشاب المتسع الأفق . فأحسست أن الخضوع له لا يخلو من اللذة ، وأنه هو الذى يشبه الركوع ولثم أذيال الثوب فى أفلام أوائل هذا القرن .

وكلما غاب تذكرته .. حتـى قـال لى ذات ليلـة فـى وقـت خـلا حولنـا المكان : « ثريا .. هل تشعرين بوجودى ؟ » .

وأودع عبارته كل قوة الرجل لا كل ذل الصبايـا .. فـانتفضت وجعلـت أفرقع أصابعى فى حركة لا شعورية ولم أرد . على حين ظلت نظراته تتسلل إلى عنقى ووجهى حتى ألهبت بشرتى ...

وفى هذه الليلة لم أذق النوم ، وتذكـرت وأنـا أرقبـه رسـالة زميلـى التـى أحرقتها وأدركت الفرق بين الرجلين ، وفى الصباح قبل خروجى إلى الكلية لم أجد فى نفسى شهية للطعام فابتسمت خائفـة ، ووقفـت أعقـص شـعرى فخيل إلى أننى أرى الشرود فى نظراتى .

راية الحرية

كان ذلك سنة ١٩١٦ ، وكنت وقتئذ في العاشرة من عمرى تلميذا حساسا ضعيف الجسم حاد العاطفة في إحدى مدارس دمشق الابتدائية التى تقع على سفح جبل قاسيون السعيد . ولا أزال حتى الآن أذكر مكانى من حجرة الدراسة فقد كنت في وسطها على التحديد ، وعلى يمينى تلميذ في مثل عمرى ينتسب إلى أسرة الزهراوى ، وعلى يسارى تلميذ آخر يقاربنا في السن ينتسب إلى أسرة سلوم ، وأصلهم من حمص ثم نزحوا إلى دمشق .

وجمعت بيننا نحن الثلاثة أشياء لا تحصى عددا .. جمعتنا على الحب ، كان أهمها أننا ندرس معا أول النهار ونلعب معا آخر النهار ، ونحب مدرسا واحدا كان بالنسبة إلى قلوبنا الصافية النقية أشبه بالسلك الذي يجمع اللآلىء . فقد كان يعجبنا كل شىء فيه حتى بنيقة قميصه المنشاة البيضاء في صفاء اللبن ، فكنا نحاكيه نحن الثلاثة في مشيته وطريقة كلامه ، وكان صديقى الزهراوى ذا عينين سوداوين واسعتين شديدتى التأثير والسحر فكان يحاكى بهما نظرة هذا المدرس ، أما صديقى سلوم فكان ماهرا في تقليد الأصوات فكان يحاكى أحيانا طريقة كلامه .

وكان من عادة هذا المدرس الشاب أن يتصفح وجوهنا جميعا بعد دخول

حجرة الدراسة كأنما كان التلاميذ كلهم قد انحدروا من صلبه ، ثم تستقر عينه على المريض منا فيسأله عن حاله ، وعن اللاهى فينا فيعيده إلى صوابه ، ويتحسس رباط عنقه فى البنيقة البيضاء والصمت مخيم على الحجرة كأنها خالية من الناس . ثم يتكلم هذا الشاب المحبوب فيقول شيئا غالبا ما يكون خارجا عن مقرر التاريخ الذى ندرسه ، لكنه فى واقع الأمر كان داخلا فى تاريخ حياتنا فى هذه الفترة التى كانت تعيشها الشام والبلاد العربية ، فى ظل الحكم التركى الذى يترنح لتصلب شرايينه وللهزيمة الفاضحة التى أصابت الباشا التركى حاكم سورية حين حاول غزو قناة السويس .

كنا فى شهر آذار (مارس) من سنة ١٩١٦ واليوم غائم والجو شديد البرد ، حين عبر عتبة الفصل مدرس التاريخ ؛ وحدثت بسرعة فائقة تلك الحركة المعروفة من قيام وجلوس ساد بعدها الصمت . و لم تكن عيوننا مطمئنة تنظر إلى الأمام ولا جلستنا معتدلة ، وكنت أنا على الخصوص أتلفت فى كل اتجاه كما يفعل العصفور الخائف ، أما مدرس التاريخ فقد ظل واقفا فى منتصف الفضاء الواقع أمام السبورة ينظر إلينا بملامح متحفزة جادة صارمة لا تخلو من الحزن ، كأنه قائد على وشك أن يصدر أمرا بإطلاق النار ، وفى عينيه أمارات الأرق ، وبنيقة قميصه ليست فى صفاء كل يوم . وأخيرا .. سمعناه يقول :

ــ أين الزهراوى اليوم ؟ لست أراه بينكم .

فتلفتنا نتأكد من شيء عرفناه من أول درس وهو أنه غائب ، و لم نرد . فخرجت من بين شفتيه همهمة لم نفهم مغزاها ، ثم سأل وهو ينقر بأصابعه على أقرب قمطر منه :

ــ هيه .. وأين سلوم أيضا ؟ إننى لا أراه بينكم .

فتلفتنا نتأكد من شيء عرفناه من أول درس وهو أنه غـائب ، و لم نـرد ، فأخرج منديلا من جيب سترته ورأيناه يمسح دمعة خلسة ، وهالنا الأمر وتلفت بعضنا إلى بعض لأن دمعة العظيم ودمعة الحبيب شيء يثير الخاطر ، وقد كان هذا المدرس الشيئين فى نظرنا . أما أنا فصرت أتلفت يمينا وشمالا فى حركة كحركة البندول لأرى المكان الذى خلا إلى اليمين بغياب صديقى الزهراوى والمكان الذى خلا من اليسار بغياب صديقى سلوم ، و لم أتمالك نفسى فأجهشت بالبكاء لأننى قبل ذلك بيوم واحد كنت قد ذهبت إلى بيت كل منهما فلم أجد أحدا ، وقال لى أحد الجيران وهو يمسح على رأسى مواسيا :

ـ لا تحزن يا بنى فإنهم رحلوا مثل غيرهم .

ثم ارتفع صوت مدرس التاريخ ينادينى باسمى ثم سألنى :

ـ هل أنت حزين ؟

فقلت :

ـ نعم .

فقال بصوت هزه الألم :

ـ لا ، لا تحزن ، فإنى أؤكد لكم أن الحزن لجيلنا نحن ، أما أنتم فإنكم ستعيشون تحت شمس مشرقة جديدة . (ثم طرق بإصبعه أقرب قمطر ووجه الكلام للجميع) اسمعوا يا أولاد ، إن هذين التلميذين غابا عنكما من أسر مضطهدة ، يعرف الحاكم التركى الذى تربى فى أحضان الجاسوسية أنها تقاوم طغيانه وتسعى لتحقيق الاستقلال للعرب . (ثم سكت نادانى قائلا) : قم يا هشام ، هل تعرف إلى أين ذهب صديقاك ؟

فقمت وأجبته بصمتى ، فأشار إلىّ بالجلوس . ونقر بأصبعه على أقرب قمطر منه ثم قال :

ـ إنهم فى طريقهم إلى الأناضول .. إلى المنفى البارد التعس القمىء . لقد رأيت فريقا منهم يا أبنائى .. وقد قضت خالتى نحبها فى الطريق .. ماتت

قبل أن تغادر قافلة المنفيين حدود مدينة حلب ، قتلتها الحسرة على زوجها الذى لم تعرف إلى أين ساقوه . لا تحزن يا هشام فإنك عندما ستكون فى سنى ستسبح فى نور من الحرية وتشرب أكسير السعادة .

ثم سكت ووقع بأصابعه لحنا على خشبة القمطر وعاد يكمل الحديث :

ــ وخالتى يا أولاد .. كان معها طفلها الصغير . أخذته إحدى جاراتها فى القافلة بعد أن ماتت خالتى ، ولابد أن التلميذ الزهراوى والتلميذ سلوم يدخلان الآن الأراضى التركية . ولكن .. أرجو ألا تحزنوا فكل شىء سيتم وفق الأمنية التى يحلم بها جيلكم ، وسترون الراية العربية فوق عذبات المآذن وأبراج الكنائس .

ثم انتفضنا على خبطة قوية عرفنا أنها من قبضته على خشبة القمطر ، قال بعدها وكل شىء فيه ينتفض :

ــ هيه ... والآن بدء الدرس .

* * *

لم أذهب إلى المدرسة فى ذلك اليوم . استيقظت وقت الصباح على حديث منفعل مختنق محموم كان صادرا من أبى خمنت أن خلافا دب بينه وبين أمى فحزنت ودفنت وجهى فى الوسادة . ثم سمعت بكاء مكتوما صدر من أمى وعرفت أن أبى عدل عن الذهاب إلى متجره فى سوق الحميدية ، وسمعته يقول لمن حوله :

ــ اقرءوا جريدة الشرق لتعرفوا كل التفاصيل .

وسمعت أخى الكبير يقول :

ــ ها هى ذى .. يا للكارثة .. لكن يا إلهى كيف وقع هذا فجأة ؟..

وقمت من فراشى متجها نحو الجماعة . وخيل إلى حين فتحت عينى ونظرت إلى دمشق من النافذة أن مدرس التاريخ يمر من تحت الشباك فى خطا مهرولة كأنه يهب إلى نجدة إنسان . وعلق بصرى بعدئذ بسور نباتى حول أحد البيوت تتوهج فيه أزهار حمراء فى لون الدم الطازج ، كأنما كان

شهر أيار من هذا العام لا يملك ربيعه إلا الزهرة الحمراء .

ثم تدافعت بحكم الفضول إلى الردهة حيث كان أفراد أسرتى مجتمعين وفى يد أخى الكبير صحيفة الشرق وفيها أسماء الرعيل الثانى من الشهداء الذين ساقهم إلى المشانق الحكم التركى ذو الشرايين المتصلبة والشيب الذى لا وقار فيه . وكان أخى الكبير يحملق فى صورة فوقفت أحملق فيها ناظرا من وراء كتفه لرجل له لحية وشارب وعلى رأسه عمامة ، وعيناه تحدقان نصف مقفلتين كأنه ينظر فى وهج الشمس ، وقد كتب تحت صورته : الشهيد عبد الحميد الزهراوى . وقال أخى : إنه صديقى . أما الصورة الثانية فقد لفت نظرى إليها سماحة وقوة وشارب مفتول .. جميل شهم وكان الدمع قد غطى عينى فلم أر بقية الملامح ، وعرفت فيما بعد أنها صورة الشهيد رفيق رزق سلوم . وقال عنه أخى : إنه صديقى .

وانسحبت إلى حجرتى وتركت الأسرة فى الردهة ، ووقفت أمام النافذة أنظر إلى الأزهار الحمراء التى تفتحت فى شهر أيار وأسترجع ما قاله لنا مدرس التاريخ فى الفصل .. فقد حننت بدورى كما فعل أخى إلى صديقىّ الصغيرين .. الجالسين عن يمينى وشمالى .. إلى الزهراوى ذى العينين السوداوين اللتين كان يقلد بهما مدرس التاريخ ، وإلى سلوم ذى الحنجرة القادرة على المحاكاة والتى كان يقلد بها مدرس التاريخ . وصرت أتصورهما وهما يعبران حدود العرب إلى حدود الترك كصناع الجواهر مع تجار الخنازير ، فانطويت على حافة النافذة أرقب الجموع فى الشارع .

* * *

وكانت الحوادث التى وقعت بعد ذلك فى البلاد العربية شديدة الضغط على خيالى .. لم أستطع ملاحقتها ، فقد جلس أبى يتحدث عن ميلاد الثورة العربية وعن الرصاصة الأولى التى انطلقت فى الأرض المقدسة نحو

ثكنات الترك بعد شهر واحد من حوادث « أيار » ، ووقف أبى فى الردهة وصار يصفق بكفيه رافعا ذراعيه إلى أعلى وهو يقول لأخى الكبير :

ـ تصور .. تصور سمعتهم يقولون .. إن حمام الحرم لم يفزع من طلقات الرصاص .. بل ظل جاثما فوق قبة المسجد ، كأنه كان يعلم أن هذا كله فى سبيل النور . يا إلهى ! نحن بانتظار النور .. نحن بانتظار النور .

* * *

مضت الأيام ، وشهدت عيناى أعياد دمشق يوم دخلها الجيش العربى وأنا فى الثانية عشرة من عمرى ، وسمعت أجراسا وأذانا فى كل مكان ، ورأيت مصرع كثير من جنود الترك ، ورأيت الراية العثمانية الظالمة تداس بسنابك خيل العرب .. لكن ذلك كله لم يشف غليلى . كنت مشتاقا إلى أن أرى وجوها ثلاثة أحبها بعد هذه الحوادث : وجه مدرس التاريخ الذى لا أعرف أين هو الآن ...

وتمنيت أن أكون أمامه فى الفصل أحملق فى بنيقته الناصعة وعينيه الساحرتين وأسمعه يقول لى من جديد : « لا تحزن يا هشام .. فإنك عندما تكون فى مثل سنى ستسبح فى نور الحرية وتشرب أكسير السعادة . نعم » . وتذكرت وجهين آخرين بعده ، لأحدهما عينان شديدتا السواد والسحر وللآخر حنجرة فضية . قلت فى نفسى وأنا أعبر جسرا على نهر بردى : « ترى من أى نهر يشرب الآن صديقاى الصغيران .. اللذان نفيا من وطنهما الغالى ؟ ترى يا ربى يشربان الآن من أحد أنهار الأرض أم من أحد أنهار الجنة ؟ » .

* * *

ومضت الأيام مرة أخرى . وبينما أنا سائر فى أحد شوارع دمشق إذا بى أجد رجلا تبدو عليه ملامح مدرسى القديم ، وكنت أنا قد تغيرت فقد كنت فى العشرين من عمرى ، ولم يكن من المستطاع أن يعرفنى . أما هو فقد كان الشيب يلمع فى رأسه ، غير أن أرنبة أنفه الشماء جدا دلتنى على شخصه ، فسرت وراءه وناديته مترددا لكنه توقف والتفت . ولما قدمت إليه نفسى كاد يحملنى من على الأرض ، وسر بى عندما عرف أننى أدرس العلوم وقال :

ــ هيا .. هيا .. هيا يا بنى .. تسلح بالعلم لندرك القافلة .

ثم صمت وحملق فى الفضاء ، وتكلم فجأة كأنما تذكر حادثا هاما قال :

ــ هيه .. ألا زلت تذكر صديقيك اللذين غابا عن الدرس ذات صباح وبكيت من أجلهما ؟

فأجبت مسرعا :

ــ بكل قلبى وأحزانى !

فحملق مبهوتا ثم ضحك ضحكة عريضة وقال :

ــ ولماذا ؟ ألا تعرف أين هما ؟ لقد قابلتهما يدرسان الحقوق فى الخارج وأنا فى أوربا . لقد فرا من المنفى ..

ففتحت فمى فى دهشة وقلت :

ــ صحيح ؟

فأجاب :

ــ هل تظننى أحلم ؟ لا يا بنى .. ليس هذا حلما إنها حقيقة . إن

الزهـراوى وسـلوم .. لم يموتـا . إنهمـا يدرسـان الحقـوق وسـيعودان ..
وستلقاهما قريبا يا هشام فى زى شـباب جديـد .. فاستكملوا معـا حقـوق
العرب .. هيا ..

وهممت أن أقبل يده .. لكنه خطفها وودعنى على عجـل .. ومشـى ..
ترى أين هو الآن ؟!

بر الأمان

كان يسأل نفسه كلما ظللته الوحدة لعله يحظى منها بجواب ، لكنه كان يرتد خائبا :

ـ لماذا خلقنا ونحن لا نعرف حقيقة ما فى نفوسنا ؟

ويدق كفا بكف فى أسف وحسرة ويستطرد :

ـ هل أحبها ؟ .. هل أكرهها ؟ .. إنهـا معى فى فراش واحد وتحت خدينا وسادة واحدة ، لكن أحلامنا مختلفة كما يقولون .

وذات ليلة قال لها :

ـ زينب .. لى عندك سؤال يستوجب جوابا مختصرا .

فنظرت بجانب عينيها وقالت :

ـ نعم ؟

فسأل والجد واللهفة فى عباراته وإشاراته :

ـ هل ما زلنا حقيقة يحب كل منا الآخر كما كان حالنا قبل الزواج ؟

وبدا لها السؤال شيئا مضحكا لأنه كان قديما لا جديد فيه .

فضحكت ثم قالت :

ـ اسأل نفسك !

ـ سألتها .

ــ وماذا قالت لك ؟

ــ إجابات متناقضة .

ــ . . .

ــ أنا بما يملأ نفسى نحوك من إحساسات أحملها ولا أعرفها ، أشبه بالطفل الذى تحمله أمه « أمانة » ملفوفة ليوصلها إلى خالته فى بيتها البعيد وتحذره من فتحها ليظل طوال الطريق نهبا للفضول .

ــ الحال من بعضه .. يا حبيبى !

ثم ظللهما صمت . وكان الوقت ليلا وبكاء طفل فى شقة قريبة يصل إليهما من خلف المصاريع . وفى هذه اللحظة رجع الزوجان إلى أيام الحب قبل الزواج ، وأيام الخطبة حين كانت زينب ترى فيه إنسانا يحقق لها كل ما ترغب ، وكان هو يرى أنها « الدلوعة » التى لا تلبث أن تفيق من الأحلام على وقع الحياة .

لكن زينب ظلت ترى فى هذا الزوج الطيب أداة تحقق الرغبات ، أداة حية تطعم وتكسو وتحب ، وإذا تأخرت هذه الأداة عن إحدى وظائفها هددت بالتحطيم .

وكانت تسأل نفسها أحيانا بعد كل هزيمة تلحقه إذا سولت له نفسه أن يعاندها هى فى كل شىء ، عن لون الحب الذى تمنحه لهذا الإنسان . وتقوم بعملية اختبار فتفترض انها فقدته ، ثم تزن شعورها فتحس بالحزن عليه فتظن البلهاء أن هذا هو الحب .

* * *

كانت كثيرة الخصام كثيرة الأحلام كثيرة الدلال ، وكان حب زوجها لها زورقا يحمل كل هذه الشحنة . ولكن ..عندما تقوم الزوابع والأنواء فى

البيت كان الزوج يتذكر بكثير من الحسرة أنه يمخر عباب الحياة فى العواصف « بشحنة » ثقيلة . بدأ يسأل نفسه :

ـ إذا كان هذا يحدث ونحن فى بدء الرحلة ، زوجان لم ينجبا أطفالا .. فماذا يكون المصير عندما تتكاثر المشاكل بتكاثر عدد أفراد الأسرة ؟

أما خصامها ودلالها فكانت تترجمهما إلى كلمة « الكرامة » وتقيس كرامتها بمقياس غير الذى تقيس به كرامة زوجها . خصوصا بعد أن عرفت أماكن الضعف فيه فجعلت من أنوثتها حبلا تشده وترخيه حسب الطلب ، وكرباجا تلوح به أو تجلد حسب الحاجة .

وكان الخصام بينهما مستحكما منذ أسبوع ، ولم يحدث بينهما قط أن طال الخصام كل هذه المدة . لكن الرجل سأل نفسه :

ـ أليس لى شىء أدافع عنه أو أتعصب له وأستعمل السلاح فى سبيله مثل هذا الشىء الذى تخوض المعركة معى من أجله . نعم ، أو لا ؟ أليس لى أنا الآخر ما تسميه « كرامة » ؟

وتحول المنزل إلى بيت تسكنه أشباح : ناس يأكلون فى صمت ويتحركون فى صمت ويستعملون الإشارة كثيرا والعبارة نادرا . وكثيرا ما كان موقفهما من بعضهما البعض يثير فيه سخرية فيكتم ضحكة فى أحرج الساعات .

وفى منتصف ليلة من الليالى قام من النوم على حلم مزعج ، رأى كأنه هو وزينب يركبان قاربا فى البحر وهما منهمكان فى كلام لذيذ ، هجم عليهما زورق فيه رجلان وخطفا منه زوجته .. تماما كما يحدث فى أفلام

القراصنة . وجرى الزورق البخارى بها وكان آخر ما رآه منها ساقاها اللتان تعرتا وذوائب شعرها الأصفر المشوش ، ثم غاب صراخها بعد دقائق وتنفس الصعداء حين صحا من النوم .

وطبيعى أن يفتش عنها فى الحجرة التى يرقد فيها وحيدا ، ثم تسلل من الفراش ووقف على باب غرفتها ، كان كل شىء فيها نائما إلا رتابة تنفس النوم . وأحس كأن زينب أصابها مكروه ففتح الباب برفق ، ولما أشعل مصباحا فى الحجرة كان طبيعيا أن تستيقظ ، ثم غطت وجهها بذراعها العارية لتمنع تسرب النور وأيقنت بينها وبين نفسها أن ضعفه تحرك نحوه حتى ركبه ، ونسيت أن المسألة الليلة لم تكن إلا مسألة قلق ، فنحن حين نحس القلق على شىء نسارع بالذهاب إليه كما نتحسس جيوبنا فى الزحام .

وبعد عدة كلمات ضحكت بعدم اكتراث كان يغريه بالتهافت فيما مضى ، لكنه فى هذه المرة صفق باب الحجرة وهو يخرج من عندها .

* * *

وفى الصباح كان كل شىء أكثر تعقدا ، والمشاكل فى البيوت مثل رغوة الصابون تتكاثر بالحك أو التحريك . وأخذت زينب تفحص ملامح زوجها بمهارة فأدركت أن هناك شيئا جد عليه ، وأن هذه الأداة الحية ستتخلى عن بعض وظائفها وأنها لم تعد ترهب التهديد !

على أنها كانت شاهرة فى وجهه سلاحا واحدا لم تغيره طوال السنتين اللتين عاشاها معا .. هو سلاح « الأنوثة » . فلما تقدمت بهما العشرة ووجد الزوج أن التكافؤ بينهما شبه مفقود ثار على أنوثتها العذبة المعذبة كما تثور على المخدر ، وأدركت هى بفطنة المرأة أن الموقف اليوم صار خطيرا للغاية .

كانت تخاف من شيء واحد ــ حين فكرت هي أن تتقدم إليه ــ خافت أن يخطو بعناد خطوة إلى الخلف إذا ما خطت نحوه خطوة ، وبذلك تأخذ القضية أحد وضعين : فإما أن تصر على التقدم نحوه واسترضائه وتنسى تعريفها للكرامة ، وإما أن تتركه مع غضبه فتسقى بيدها شجرة الخلاف في البيت حتى تثمر ..

* * *

وكما تسلل هو منذ ليلتين ووقف على باب مخدعها وسمع أنفاسها النائمة ، تسللت هي في هذه الليلة متعللة أنها ستقفل عليه النوافذ التي تركها مفتوحة فسببت له أذى . لكنها حين أضاءت النور لم يضع ذراعه على عينيه ، وكان على وجهه ابتسامة عاتبة تدل على الطيبة والغفران أعقبتها مدة ذراع .. تعني حسن الاستقبال .

وفي الصباح كانت كل الأمور محلولة فيما عدا مسألة واحدة كانت تشغل بال الزوج هي .. إلى متى سيدوم الوفاق في هذه الجولة ؟ وكم أسبوعا سيكون عمره ؟

وفي عصر اليوم نفسه قفز الحلم السريع الذي أرقه ذات ليلة إلى خاطر الزوج . كان قد نسيه لكنه تذكره لأنهما كانا في زورق في النيل .

اليوم حار ومعهما مراكبي عجوز ، عروق يده متوترة تحت الجلد ، إحدى عينيه شبه مفقودة ، وقصته مع زوجته تثير ضحك زينب وزوجها . وأخذ يحكي قصة الخلاف في بيته .. وأبرع ما قاله في الموقف أنه يحارب وحده ، أو هو كالعصفور ذي الجناح الواحد . ثم توقف عن التجديف كأنما سنحت له فكرة ، وتطلع في الأفق حيث كان زورق بخاري يشق الماء في اندفاع ثم قال كمن انتهى من تلقي رسالة :

ـ بيتنا أشبه بالزورق إذا عطل أحد بجدافيه .

وجدف بواحد فقط قائلا لهما :

ـ انظرا كيف يسير . هناك أشياء محتاجة « لاثنين » دائما لكى تمشى . ها . ها . مثل الأجنحة والمجاديف والعجلات والبيوت .

كان الماء ثقيلا فبدأ الرجل يلهث والزوجان صامتان كأنهما أمام لغز ، وأخذت حبات العرق تلمع على ذراعه العارية وشرايينه الممدودة . وعطش فمال على قلة وشرب وفجأة بدا للزوج كأن حلما سيتحقق .

لقد انكسر أحد المجدافين وهما فى لجة الماء فبدا الذعر على وجه الرجل والمرأة فى الوقت الذى صاح فيه العجوز :

ـ اثبتا مكانكما .. بشىء من الحيلة سنصل إلى بر الأمان .

ثم أخذ يبتهل ، وبحنكة ودراية وكد وعرق وصلوا إلى الشط . وحين كان المراكبى يمسح عرقه كان الزوج يمد له يده بمنحة .

وكان آخر ما سمعاه من العجوز بعد الدعاء لهما أن قال وفى أنفاسه بقية لهثان :

ـ يا سلام ! صحيح هناك أشياء كثيرة محتاجة إلى « اثنين » لكى تمشى ، أو تصل إلى بر الأمان .

الرجل القمئ

ليس أحد يعرف عن هذا الرجل شيئا ، لكنك عندما تراه تجد نفسك انغمست فى إحساس الشفقة نحو هذا الرجل القمئ .

وهو عندما يلقاك ويحدثك أو يطلب منك تفطن لأول وهلة أنه مخادع ، لكن البريق الخابى فى عينيه والذى يحمل إليك معنى فواجع الذل قد يحملك على أن تستجيب مطلبه ، ليس على سبيل الاقتناع بل لكى تشعر حين يبتعد عنك بأن جميع الناس مثلك تماما .. ليسوا أذلاء .

* * *

إنه يحمل على كتفه كل يوم عدة أثواب من القماش الرخيص ، وتحت إبطه « متر » مصنوع من الخشب ، يجول فى القرية المجاورة مناديا على بضاعته بصوت ذليل ، ونداؤه غامض .. نعم ، لا يستطيع من بداخل الدور أن يعرفوا ماذا يعنى نداؤه بالضبط ، وقد خرج النساء له بالصدقات أول الأمر من صدى صوته المتذلل فلما رأين بضاعة من الأقمشة وتحت إبطه « متر » خشبى استوقفه بعضهن واشترين منه .

وهو منذ ذلك الحين يجول فى القرية والقرى المجاورة ، واشتهر باسم الرجل القمىء .

عيناه الخائفتان باستمرار كانتا تؤديان له خدمة عظيمة ، فعن طريقهما

كان يغش وهو يقيس ، حتى إذا ما انتبه أحد إلى عمله وقفت دمعة على أهداب العين كشاهد نفى لا يبارى ، وأخذ هو فى إعادة القياس من جديد . والغريب فى الأمر أنه ... كان يغش للمرة الثانية . و لم يكن أحد يتصور أنه يغش وهو يبكى ! أما قبيل الأعياد فإنه يجوب القرى بأصناف رديئة من الحلوى لا يمكن أن يعرف لها اسم . وإذا ما ألحوا فى معرفة اسمها اخترع اسما يمكن نسيانه حتى إذا ما سئل عنه مرة أخرى كان على يقين من أنه لن يكشف كذبه .

أما فى ليالى الصيف .. أيام الحصاد فكان الفلاحون يسمعون فى وقت متأخر نهيق حماره الأسود الحالك ، يسير به فى الليالى المقمرة أو الظلماء وقد ركب على زكيبة فيها بعض حبوب القمح ، وأمامه قرص من العجوة الخالية من النوى ، ومعه سكين ليقطع عند البيع . ينزل الأجران المجمعة أو المفردة فيفاجئ الواحد أو الجماعة بحماره وبضاعته ، ولا يكف عن الإلحاح والتذلل حتى يبيع ويأخذ الثمن قمحا يضعه فى الغرارة ثم يركب ويمضى .

* * *

وكان الفلاحون يتساءلون عن شىء مهم ، هو .. من أين هبط القرية التى أقام فيها ؟ إن شكله غريب !

وقال بعضهم : إن ذلك كان مجرد مصادفة . وقال الآخرون : بل إن هذا الرجل القمىء كان على معرفة بالباب الذى طرقه بالليل . وكان قد رتب كل شىء قبل أن يخطو خطوة فى الظلام لأن المصادفة قلما تخلق مثل كل هذا .

وحدث هذا عندما أجمع أهل الرأى فى قرية « المنشية » على طرده ، فاستمهلهم عدة أيام ثم خرج . والغريب لم يكن فى رحيله ، لكن الغريب

كان فى اختياره للوقت الذى رحل فيه .

ومن الطبيعى أن نتصور أنه ركب حماره وسار فى يوم ، لكن الغريب هو .. أنه مشى فى يوم عبوس !!

ومن الطبيعى أيضا أن نتصور أن رحيله كان فى النهار ، لكن الغريب هو أنه قد اختار الظلام وقتا لرحيله .

وكان الليل حالكا والوقت شتاء والسماء ترسل برذاذ خفيف .

وكان الريف مخيفا ..

وهناك دابة سوداء تمشى فى مسكنة وذلة تتحسس بحوافرها الأماكن الجافة نوعا ما على الطريق ، والرجل القمىء على ظهرها ، عليه جلباب رمادى وشملة رمادية وحماره أسود .. كل هذا لا يمكن العين من أن تراه فى الظلام .

وظل يزحف ، وحفيف الأشجار على الطريق يغطى فى أكثر الأحيان على وقع حوافر دابته .

كان الذعر يمزقه ، لكنه كان يحمل تعويذة عجيبة هى .. قاموس يحوى كل كلمات التذلل فى الدنيا ، فما تكاد يد تمتد إليه حتى يكر القاموس من الألف إلى الياء .

وظل يسير ، وبدت له مشارف القرية التى يقصدها . إنها صغيرة لكن أهلها طيبون . وستكون قسوة الطبيعة فى هذه الليلة التى هو سائر فيها مثيرة للطيبة حتى ولو كانت قليلة .

ووجد مطلبه .. هذا هو المكان الذى رتب نفسه على أن يأوى إليه !

دار منفردة تقريبا ليس على سطحها سور ولا كلاب تنبح ، تبدو تحت الظلام فى طمأنينة غير عادية ، طمأنينة بنية تمددت فى حضن أمها .

وتوقف ، ونزل عن حماره وطرق الباب ..

لم يكن الوقت متأخرا كثيرا ، على أكثر تقدير كان القرويون قد تعشوا وصلوا ونام بعضهم .

وطال دقه للباب بحلقة من الحديد فجاءه من الداخل صوت امرأة — يعرف وجهها وأسماء أولادها — يسأل عن الطارق . وبدا من شقوق الباب ومن تحته نور متراقص لمصباح .. ثم فتحت المرأة الباب بعد تلكؤ .

* * *

وما لبثت أن فغرت فمها ، فقد عرفته . إنه هو ذلك الرجل القمىء ذو الصوت الذليل الغامض الذى يبيع فى القرية كل شىء ، والذى وفد عليهم مرات عديدة واشترت هى منه جلاليب لأولادها ، والذى خطفت قلنسوته ورمت بها بعيدا عن الأرض يوم اكتشفت أنه يغش فى المقاس .

كان مصباح الصاروخ يتراقص فى يدها وهى واقفة لا تكاد تصدق .. هو بنفسه وحماره وحمولته ، وهذا الوقت من الليل والشتاء والمطر ؟

وبعد سكوت طويل قالت :

ــ ماذا تريد ؟

رد بصوته الباكى وهو أمامها ــ وطوله متناسب مع الحمار القصير :

ــ سيدتى .. شىء مخيف .. كنت سأرمى بنفسى فى بئر الساقية القريبة من هنا ، لكن .. عدت أسأل نفسى عن مصير المسكين والبضاعة التى فوق ظهره ..

ردت عليه بسرعة :

ــ تريد أن تبيت ، لكن أنت تعلم أن زوجى كفيف وتعرف أن أبنائى صغار . فلماذا لا تطرق بابا آخر ؟

ــ ليس لى اختيار يا سيدتى .. الأوحال تسد الطريق . وعلى كل حال

.. ممكن أن أبيت فى الخلاء . فقط . خذوا الحمار بالبضاعة حتى الصباح ، وربما كان هذا مكسبا لكم ..

ردت المرأة بدهشة :

ــ مكسب لنا ، أنت ...

ــ اصبرى يا سيدتى .. قصدى أن البرد شديد وسيقتلنى ، وفى الحمولة حرير يصلح قمصانا ، وقطعة من الجابردين تصلح جلبابا لرجل .. غنيمة !

التاعت المرأة . دخل إليها خوف وشفقة فضلا عن إنسانية الإنسان وسماحة الريفى . وما لبثت أن قالت فى نفسها بسرعة « لو مات هذا الرجل متجمدا من البرد وأصبح الناس فوجدوا بضاعته عندنا ثم قصصت عليهم هذه القصة ما صدقوها ولدخلنا فى سؤال وجواب » .

كان الرجل يتمتم بكلام غير مسموع أشبه بتزلف العجماوات . لكن ما لبث أن جاء على غير انتظار صوت زوجها من الداخل وقد استيقظ من شبه نومة قائلا :

ــ ماذا عندك يا أم ناجى ؟!

ــ إنه الرجل الذى يدور بالأقمشة والحلوى والعجوة .. قطع المطر عليه الطريق .

فرد الرجل نافد الصبر :

ــ دعيه يأوى ليلته ويرحل فى الصباح .. ماذا سيجرى فى الدنيا ؟ .

* * *

رقد القمىء فى حجرة شتوية مع رب الدار الذى ظل ساهرا طوال الليل يستمع إلى أحاديث ضيفه التى لا تنقضى . وكان رب الدار سعيدا بذلك ،

ليس لأن كلام الغريب مسل بـل لأنـه يحمله على أن يظل مستيقظا حتى تشرق الشمس ويرحل .

وكانت حكايات الغريب تثير الفضول والخيال ، ونبرة الكـذب والأسى فيها تسدل ستارا بين العقل والحقيقة .

حكى أن أمه خانت أباه .. وهربت مع رجـل آخر ، وأن أخـاه الأكـبر بعد موت والده طرد أخاه الأوسط من المنزل ، ثـم عـاد فطـرده هـو وهـو أصغرهـم .. سار شريدا تائها لا يحمل زادا ولا مالا ، ومن أجل ذلـك نبتت نبرة الذل فى صوته ، ومن إطراقة الذل المستديمة كأنما أصابتـه القمـاءة . لم يسمع كلمة طيبة منذ نشأته ولا موعظة حسنة ، وإذا كان للقلب بـاب فإن قلبه لم يفتح أبدا .

واستغفر الله رب البيت وأخذ يحدثه :

ــ الدنيـا مليئـة بالخـير .. فلمــاذا أحاطت بـك كل هذه الشـرور ؟ (وضحك) من منكم اختار الآخر ؟

رد الغريب بصوته الدامع :

ــ هى التى اختارتنى !!

ــ هل رأيت عصافير تسكن الخرائب ؟

ــ لا يا سيدى .

ــ هل رأيت « بومة » على شجرة تفاح ؟

ــ لا يا سيدى .

ــ إذن لابد أن فيك عيبا . أو ربما فى أسرتك .

ــ أسـرتنا ؟! اه ... أسـرتنا قسـمان : نصـفها ظالم ونصفها ذليل ومشهور عنها أنها لا تقيم فى مكان مدة طويلة .

ـــ آه .. يبدو ذلـك ، ولذلـك فقـد اخـترت أنـت مهنـة مناسـبة .. يبـدو عليك أنك متعب ، ويحسن بنا أن ننام فقد أوشك النهار على الطلوع .

* * *

واستيقظوا عند الصـبـاح وكان أول ما عمله الغـريب أن قدم عـدة « فضل » من الأقمشة جلاليب للصغار على أنها هدايا ، ثم استأذن لـلرحيل . لكنه ما كاد يذهب لكى يأخذ دابته حتـى صـرخ صرخة مفزعـة ، وذهـب رب الدار وزوجته إلى حيث يقف الرجل فإذا به يحملق فى حماره الذى رفـع إحدى رجليه الأماميتين فى عجز عن أن يضـعها على الأرض أو أن يدوس عليها . فهتف الرجل الغريب بصوت باك وعين دامعة :

ـــ ماذا أعمل ؟ لابد أنه أصيب منى فى الطريق الموحـل !!.. هـل أحمل متاعى على ظهرى .. (ونظر إلى أهل الدار) وإن استطعت ذلك فهل أحمل الحمار أو أتركه ؟ (وأخذ يبكى) .

قال رب الدار بوقار وثقة :

ـــ أقم عندنا يوما أو يومين حتى تتحسن أحوالك .. أيها المنحوس .

* * *

لكن رجل الدابة لا تريد أن تشفى .

فقد كان يتسلل إليها ويتلف الجرح الذى أحدثه فيها كلمـا أوشـك أن يبرأ ...

وأخيرا قال رب الدار :

ـــ باسـم مـاذا ستظل عندنا ؟! لقـد أصبح الطريق الموحـل وكأنـه مرصوف . توكل على الله وارحل فـإن إقـامتك إن طـالت عندنـا أصبحت

عارا علينا .

رد القمىء :

ـــ آه .. امنحنى فرصة أخرى .. آه ..

ـــ فاتت كل الفرص .

ـــ أطفالك يحبوننى و .. أ ..

ـــ ....

وباتا معا الليلة الأخيرة ، وسهر الغريب يسمر ، وأخذ يتحدث بما ألقى الشك فى قلب الرجل بأن زوجته تود لو أنه أقام .

سأخرج مبكرا حتى لا يرانى أحد سواك . إننى لا أحب مواقف الوداع يا سيدى ، لكن .. هل لى أن أعود لزيارتكم ؟

ولما لم يرد رب الدار همهم الغريب كأنه يبكى ، وقبيل طلوع النهار خرج الرجل لوداعه وكان وحده ، لكن الزوجة استيقظت على فتحة الباب فسارعت إلى حيث الرجلان . ولم يكن رب الدار مستطيعا أن يتبين شيئا إلا أن هبة النسيم نفسها كانت مشحونة بروائح غريبة . إلا أن كل نأمة ولو من دجاجة كانت تحمل إليه أشد المعانى رهبة وغموضا .

وهكذا زرع بذور الشقاق بين الزوجين .. ورحل .

وتناقل أهل القرية ما تركه هذا الرجل القمىء بينهم ، ثم تناهى إليهم أنه لم يطرد من قرية المنشية إلا لأنه أشعل النار فى إحدى القطط ثم أطلقها تجرى بين أجران القمح كرها فى أهلها وكادت تحترق لولا عناية اللّه ، ولما كشفوه طردوه .

ومضت به الأيام فإذا لصوته الغامض الباكى ينادى ذات يوم على الأقمشة ، ويتناهى إلى رب الدار الذى استضافه عدة ليال .

وجلس الرجل متحفزا ...

فإذا به يطرق الباب وتخرج الزوجة فتجده أمامها ليسألها عما إذا كانوا يريدون شيئا ؟

ولم ينتظر الجواب بل وضع بضاعته وجلس .

كان هذا كافيا .. ولم يتكلم أحد ، بل خرج إليه الرجل المكفوف ورحب به وطلب إليه أن يقيس له عدة أمتار من قماش معين . وجلس إلى جواره ويجس القماش بيده .

كان جسمه ملامسا جسمه . وبدأ الغريب يثرثر ، يضحك ويحكى ويتلطف . وفجأة صرخ ، ثم ابتلع صرخته لأن مدية طويلة أغمدت بين كتفيه .

الإنسان الطيب

العيد عند أطفال هذه العزبة له معنى واحد .

إنهم عدد لا يزيد على ثلاثين طفلا لعائلات قليلة أربابها من عمال الزراعة ، والعزبة فى مجموعها لا تزيد على مائتين من السكان تقع فى حضن ترعة كبيرة فى ظلال النخيل وأشجار التوت ، أهلها مثل أسرة واحدة ؛ فارتفاع صراخ بين جدران منازلها لا يعنى إلا موت أحد لأنهم لا يتشاجرون ولا يتناحرون .

لكن العيد عند أطفالهم له معنى واحد .. معنى أن يستيقظوا صباح العيد فيجد كل طفل لعبة عند أمه جاءت بالليل وهو نائم ، جاء بها له رجل يسافر إلى المدينة من أجل هذه الأشياء ، ويفتح كل طفل عينه المخدرة بالنوم فيرى مع نور الصباح وصياح الديكة وروائح الأفران لعبة جديدة تتجمع على ألوانها الزاهية أبهة الفرحة ورونق الدنيا كلها .

وعندما يحتضن الأطفال لعبهم يذكرون اسم هذا الرجل الذى قدمها هدية لهم فى صورة خاطفة لكنها عميقة ، تهل على قلوبهم مرتين فى العام ولا تمس قلوبهم إلا لمدة ما يمس النسيم أوراق الورد ، لكن رائحة شذية منها تتعطر بها النفس الإنسانية .

وأخذت الأعياد تتوالى والعادة لا تتغير ..

وأخذ الرجال والنساء فى القرية ينظرون إلى هذا العمل نظرة لا فرق

بينها وبين نظرة الأطفال ، أصبحت لتكرارها شيئا عاديا جدا مثل ظهور ثمار التوت عندهم ، أو فيضان الترعة الكبيرة التى تقع عزبتهم فى حضنها .

لكن الرجل الذى أخذ على نفسه أن يعمل هذا العمل لم يفقد لذته مطلقا ؛ بل كان مع دخول كل عيد يشم روائح عمله كما يشم روائح الحصاد ، ويتفنن ليجدد ويتصور عمل الفرحة فى القلوب الغضة التى تجرى باللعب على تراب محدثة ضجيجا له رائحة الحياة . ويتصور ــ وهو الذى لا أولاد له ــ أن هؤلاء جميعا أولاده يرقبهم من إحدى النوافذ فيراهم على الطريق أو مماشى الحقول مثل كلمات حلوة ، كأنها وعد من اللّه بالخير والبركات لهذه الأرض ، وربما دمعت عيناه لهذا المنظر لكن قلبه فى حقيقة أمره مليئا بالرضا والهدوء ..

* * *

كل طفل يكبر من أولاد هذه العزبة تتحول اللعبة التى كانت تشترى من أجله ــ تتحول إلى طفل آخر ، لكن كثيرا من الأطفال الذين كبروا أو تجاوزوا سن اللعب بمثل هذه الأشياء كانوا ينظرون إليها وهى فى أيدى أطفال غيرهم نظرة مليئة باللذة والتأمل . فهم يرون أنفسهم أطفالا ، وهم يذكرون هذا العمل بالحب والتقدير ويتمنون لو استطاعوا أن يقدموا لمن يعمله شيئا ما .

لكن نظرات كثير من الناس كانت تلمس هذا الرجل وهو سائر ودون أن يحس ، تلمسه فى كل عيد لمسة كأنها كف تربت على ظهره أو كتفه ، و لم يكن هو يشعر بها ؛ وربما كان هناك كثير من الذين تجاوزوا سن اللعب يتمنون أن يفعلوا مثله يوما ما .

* * *

وغير هؤلاء كان فى العزبة ناس قادرون لم يخطر على بالهم أن يفعلوا مثل هذا ، ذلك لأن محور اللذة يختلف من روح إلى روح . فلم يكونوا قادرين على تصور مدى السعادة التى تلمس القلب حين ينجح فى طبع ابتسامة على فم محروم خصوصا إذا ما كان طفلا ؛ لأن الكبار من الناس قادرون على الاقتناع بالحرمان لقدرتهم على فحص أسبابه ، أما الأطفال فعالمهم ملىء بكل ممكن ، عالمهم من خيالهم .. من صنعهم وحدهم لا يشاركهم فيه أحد ، لذلك فإن اقتناعهم بالمستحيل .. أول مستحيل .

وكان القادرون الذين لا يفعلون مثل فعل هذا الرجل يعزون عمله هذا إلى أنه محروم من الأولاد ، فهو يتصور ويتلذذ ولو كان أمره غير هذا ما فعل هذا .

ولم تكن هذه الأفكار تعنيه ، فقد كان منغمسا فى أفكاره مثل انغماس غيره فى أفكارهم . وكل عيد يقدم يدخل الفرحة على قلوب كثير من هؤلاء الأطفال يملئون أرض العزبة فرحا ومرحا وكأنهم يعبرون عن فرحة العالم كله .

* * *

لكنه بعد حين من الزمن رأى الذين كانوا لا يؤمنون بفكرته شيئا غريبا .. شيئا جعلهم يفكرون من جديد .

ففى يوم عيد آن لهذا الرجل أن يغيب عن الدنيا ، مات قبل العيد بيوم واحد ولم يفطن أحد من الكبار إلى ما سيحدث يوم العيد ، يوم لا يجد غير القادرين من الأطفال لعبة تخطف أبصارهم وتثير مرحهم .

وشغل أهل العزبة بهذا الحديث ؛ لكن هذا الحدث لم يمنع صباح العيد من المجىء .

وخرج كثير من الأطفال بلا لعب ، وذهب كثير منهم من الذين لا يدركون مغزى الحادث يسألون عن الرجل فى داره . أما القادرون فكانوا يهربون بلعبهم فى كل مكان بعيد فلم يجدو للعيد طعما .

ولأول مرة فى هذه العزبة ظهر العيد بلا بهجة ، كأن فرحته كامنة فى قلوب الأطفال الذين لا يجدون ما يفرحهم .

ويومئذ أدرك الكبار من الناس مغزى هذا العمل الذى كان يفعله الإنسان الطيب .

مصرع الدمية

كانت تفكر أحيانا فيما عسى أن ينتهى إليه مصيرها بعد أن تموت هذه السيدة التى تصارع أزمات الشيخوخة ، لكن حركات ذهنها المهمل الساذج لم تستطع أن تزحف على ظلمة المستقبل إلا بقدر ما يزحف نور الشمعة العارية على الخلاء المظلم البارد .

وإذا كفت فجأة عن التفكير تعود فتنحرط فيه ، وتصب قلقها الخاطف القصير على ما قد يكون بين يديها من شىء ، فتنخب الباذنجان بشدة أو تدلك الغسيل بعنف . ثم تهدأ .. قليلا .. وتأخذ نفسا باردا مرتاحا وهى تتنهد ، ثم تستغفر الله .

لم يكن لها اختيار فى وضعها الأول يوم حملها إلى القاهرة أحد الوسطاء من إحدى قرى مديرية الجيزة لتعمل خادمة فى هذا البيت الصغير الموسر الهادىء ، وحملت معها آنذاك أحلام كل عذراء فى الزواج . وكانت أحلاما بسيطة لا صخب فيها ولا ضجيج ككل أحلام القرية ، رسمت لها أمها خطوطها الأساسية حين أفهمتها برفق الأمهات وحسن تلميحهن أنها جميلة ، وأن حلية من الذهب وبضعة من الجنيهات توفرها من عملها فى العاصمة كفيلة بأن تبعث النشاط فى سوق حياتها المرجوة حين تزور القرية فى عيد من الأعياد .

ثم كانت فى بيت سادتها ــ بعد ذلك ــ سلعة محبوبة توفرت فيها الطاعة والطيبة والنظافة وعدم الجمال .

وكان الملمح الأخير هو المحور الحقيقى الذى يدور حوله كل عطف لقيته من المخدومين ، فملامحها الكبيرة التى قطعت بسخاء جائر كانت تخدم ملامح سيدتها « ميمى » إذا ظهرت معها فى مكان ما ، وقوامها المتداخل كان عاملا أصيلا فى إظهار رشاقة سيدتها « سونا » إذا مشت إلى جوارها فى الشارع ، وسمرتها النحاسية الصدئة كانت تبرز بياض وجه سيدتها الكبيرة أم البنتين واستدارته كذلك ، حتى لا تكاد ترى تجاعيد الشيخوخة التى بدأت تلمسه فى كل مكان .

ثم تحقق الحلم ..

ذلك الذى رسمت لها أمها خطوطه الأولى ، فعادت إلى القرية بعد بضع سنين وفى أذنها قرط وفى رقبتها « ما شاء اللّه » وكلاهما من الذهب !

وكان فى الصرة التى تحملها على رأسها جلابيب ، منها المدنى الذى يظهر تفاصيل الجسم وانحناءاته ، ومنها القروى الذى يغطى كل شىء حتى يقبل تراب الأرض .

رجعت إلى القرية فى عيد من الأعياد محملة بكل هذه الغنائم ، وشىء آخر فوق ذلك كله ، هو منديل نسوى صغير فيه ورقة مالية مطوية حشرته بين ثدييها حتى لا يضيع ..

وفاحت منها رائحة عطر غريب على الحقول وهى تعبر الطريق إلى القرية ، شمت عبيره امرأة جالسة إلى جوار بقرة على رأس حقل فعبت من الهواء كما يعب الظامىء من الماء ، ومصمصت بشفتيها وعدلت الطرحة

على رأسها وردت عليها التحية ودعت لها « بالعدل » ..

وصارت « زينب » فى إجازة العيد أحدوثة الحارة .

وكانت أمها صاحبة الفضل فى ذلك مرة أخرى لأنها دعت كل أترابها من النسوة اللاتى تنشد بينهن حماة لبنتها ، وأرتهن الخيرات التى جلبتها من المدينة والتى أصبحت ملكا خاصا بها تتصرف فيه كيف تشاء .

واستمرت عملية العرض ثلاثة أيام انتهت بعودة زينب إلى المدينة ، وقبلتها أمها قبلة الوداع فى خدها الناتىء الوجنات الأسمر المدخن ، فرأت فى عينيها بريقا يفهمن مغزاه !

* * *

وانطبعت الفترة التالية من حياتها بشىء من الترقب .. كانت تنتظر شيئا مجهولا جميلا يبلغها من رسول لا تعرف شخصه . واشتد قلقها يوم ودعتها صديقتها عواطف التى تخدم بيت عثمان أفندى فقبلتها عند ناصية الشارع وهى معلقة فى ذراعها عروة السلة ودعت لها بنفس المصير .

لقد ذهبت عواطف لتتزوج وعريسها سائق سيارة عند أحد الأغنياء ، ولم تستطع عينها على الخصوص ولا عين سواها من الناس أن تفرق بين سحنته وسحنة السادة وهو جالس إلى عجلة القيادة .

وكانت عيون الفتاتين مغرورقة بالدموع ساعة أن سارت هذه فى طريقها إلى بيت الزوج وتلك فى طريقها إلى بيت المخدوم . ومنذ ذلك الضحى أحست بقلقها المتزايد ، وأخذت تنظر إلى حلاها الذهبية وجلابيبها المدنية والقروية ـ كلما اختلت بها ـ نظرة الداعى المأزوم إلى ضريح من الأضرحة ، نظرة يشوبها استبطاء وإيمان ورجاء يتجدد على الرغم من كل شىء .

ودخلت عليها سيدتها « سونا » المطبخ ظهر يوم الجمعة وأخبرتها فجأة أن أمها قد حضرت ــ أم زينب ــ جاءت من القرية .

وعند ذلك جاهدت الفتاة نفسها لتطبق جيدا على طبق من الصينى كانت تغسله وقد أوشك أن يسقط منها ، ثم نظرت إلى سيدتها وسألتها لتتأكد :

ــ أمى أنا ؟ أمى أنا يا سيدتى ؟

و لم تتحرك من مكانها على الرغم من ذلك لأن شيئا أثقل من المألوف شدها إلى الأرض كما تربط الهرة فى وتد غليظ .

وتوافد على رأسها عدة رجال ، شباب من كل نوع ، منهم من لم يفرح بالدنيا حتى هذه اللحظة ، ومنهم من لم يسعده الحظ فى زواجه الأول ؛ لكنهم ــ فى الأغلب ــ ممن يحملون الفأس مع مطلع الشمس ليدبروا رزق يومهم ، ومن الذين تقوم اقتصادياتهم العائلية على أساس الازدواج فتعمل المرأة مع الرجل جنبا إلى جنب ، وليست بيوتهم من التى تقسم فيها المسألة إلى قسمين فيسعى الرجل فى سبيل الرزق ، « وترقد الأنثى على البيض وتحتضنه حتى يفقس » ...

لكن زينب كانت تريد زوجا على أى حال .

و لم تأخذ أمها رأيها فى خطيبها بل أبلغتها الخبر إبلاغا كما هى العادة .

وأطرقت الفتاة فى صمت أعلنت به قبولها ، ثم أخبر السادة بالموضوع فغلب جانب الأسف على بقية الجوانب لأن الأسرة فى الحقيقة أصيبت بخسارة ولو أن ربة البيت قالت وهى تودع خادمتها :

ـ أنا أشعر كأنني أودع إحدى بناتى ؛ مع السلامة يا زينب .. اذكرينا دائما !

* * *

وعندما تظهر بقايا نشوة السكر تظهر بوادر الصداع ..

ففى اليوم الذى انتهى فيه الزمن من أكل كل ما ادخرته زينب لم يبق سوى جلباب مدنى تلبسه تحت الجلباب القروى الذى مزقته قواقع القطن فى عدة أماكن فى موسم الجمع ، فى هذا اليوم أحست المرأة بشظف العيش إحساسا واضحا . فقد كان كل شىء فى بيت « سونا » و « ميمى » طريا لينا حتى فضلات الموائد .

والزوج لم يكن خالص النية يطلب الزواج من أجل الزواج ، كان طامعا مكسالا . و لم يكن بينهما أولاد فرماها بغتة بلفظة « الطلاق » فخرجت تحمل أشياء ليس بينها من ذكريات المدينة سوى الجلباب القديم الذى مزقته قواقع القطن فى أماكن عدة ، ومشت إلى دار أمها فى ليلة ظلماء تتعثر ما تحمل على أرض غير مستوية !

وفى الليالى الثلاث التالية لم يطف بذاكرتها شىء قدر ما كان يطوف قول ربة البيت لها وهى تغادر القاهرة : « اذكرينا دائما » .

وقد كان ذلك منذ سنين فهل كل شىء هناك على وضعه الأول ؟

ولكنها وجدت نفسها فجأة تدق عليهم باب المسكن ، وحدقت فيها السيدة بعينين دب فيهما الوهن . ولما عرفت فيها خادمتها القديمة رحبت وابتسمت ، وبكت زينب حين أحست بوقع نظراتها تفحصها لأنه لم

يكن عليها من آثار القرية إلا الجدب والعرى وبقايا الدموع ، ودلائل زواج كأنه نزيف اكتسح طراوة الشباب من الأماكن المستوفزة .

ثم استأنفت حياة غير محدودة المعالم ولا واضحة الأهداف ، ليس فيها ما يطلب إلا اللقمة والخرقة والركون إلى الظل والرقاد آخر اليوم على شىء لين .

* * *

واليوم ؟ تغيرت الدنيا .. ولابد لها أن تتغير .

وأطرقت زينب وهى تنخب الباذنجان واستغفرت اللّه وانخرطت فى التفكير .

لم يعد فى البيت أحد غيرها هى والسيدة العجوز .

تزوجت « ميمى » ثم تزوجت « سونا » حادثان سعيدان فصل بينهما حادث مشئوم طبقا لبرنامج الدنيا التى تراوح بين الخير والشر . فقد مات رب البيت بعد زواج الأولى وقبل زواج الثانية . وهزت الخادمة رأسها وهى تعصر الطماطم وقالت : « دنيا ! » وأتاها صوت سيدتها من بعيد تستعجل شيئا طلبته فسرقها من الماضى وألقى بها إلى الحاضر الصامت الأبكم ، والذى يطوف بكل أيامه ولياليه حول باب مستقبل مبهم .

ماذا بعد هذا البيت ؟ بيت آخر .. لكن .. أهو بيت زوج أم بيت سيد ؟

ثم سرقها الماضى من الحاضر مرة أخرى فتذكرت القرط والمشا للّه التى تحلت بهما فيما مضى والأيام التى أكلت هذا الذهب فلما فرغت منه استدارت لها لتنهشها .

وعاد الحاضر وسرقها من الماضى . إن معها ذهبا جديدا لكنه قليل ، والزوج فى هذه المرة يطلب ذهبا كثيرا لا قبل لها باقتنائه .

ثم سرقها المستقبل من الحاضر والماضى معا ففكرت فيه ، غير أن ومضات ذهنها المهمل الساذج لم تستطع أن تزحف على ظلماته إلا بقدر ما يزحف نور الشمعة العارية على الخلاء المظلم البارد .

لكنه قابلها وقت العصر عند منعطف الشارع ، فى نفس البقعة التى ودعتها فيها صديقتها عواطف قبل أن تتزوج ودعت لها بالتوفيق وقد علقت فى ذراعها السلة . وكان هذا الشاب أحد شريكين اثنين فى دكان لبيع الخضر وقد كاشفها بحبه من قبل ولكنها لم تصدقه . ما الداعى وهو وسيم وهى تعرف وجهها ؟ وما الداعى أيضا وهناك من هى أجمل منها ويعرضن له فى الطريق ؟!

لكنه أقسم اليوم لها أنه جاد محب مخلص فيما يطلب . وقد أكد لها صدق ما ينوى ليلة أمس .. ساعة استطاعا أن يخطفا من الزمن لحظة هنية كانت على حلاوتها سببا فى أرقها طول الليل .

وهمت زينب أن تتكلم لكنه استأثر بالحديث وإحدى عينيه نصف مغمضة :

ـ الفلوس يا زينب ، الفلوس ! الله يلعن الفلوس !

فهمست وقلبها خائر :

ـ الفلوس ؟

ثم عرضت له يذهبها مرة أخرى ، بالقربان الفاسد الذى أحرق مرة من قبل ثم تجدد ، وارتجف جسمها كأنما أحست لمسة الماضى ، بقواقع القطن وخبز الذرة والرقدة على الحصير الجافى ، لكنها ساقت القربان بين يدى

إلهها القاسى .

فقال خليل وهو يفتح العين المكسورة ويكسر العين المفتوحة مستنكرا :

ــ يا سلام دهبك أنت ؟ دا أنا أزوده !

ثم مال عليها يهمس ويعرض الحل ، ويؤكد لها أن الأمر الذى يبدو لنا الآن عسيرا معقدا سيمسى فى إحدى الليالى أيسر مما تظن .

غير أنها هتفت وقد غاب الدم من وجهه الأسمر :

ــ ياه .. دهب ستى !

* * *

ولم تنم طول الليلة كما أرقت من قبل فى ليلة حلوة وكان أنين سيدتها يصل إليها أحيانا وهى تذكر . فلعنت « خليل » وأبا « خليل » ثم جده ثم رجال الحى ثم الرجال على وجه الأرض .. ثم استسلمت للنوم .

وأعرض عنها وغازل الجميلات من أندادها على مشهد منها ، ولما استبدت بها النار استسلمت له وسمعته يقول :

ــ ليس فى الأمر جريمة . الصبايا هن اللاتى يلبسن الذهب أما العجائز فلمن يتزين ؟ والذهب الذى تتحلى به سيدتك العجوز سيفتح بيتا سعيدا أيتها الحمقاء المجنونة . سأعمل كل شىء وأنت فى الفراش .. مهدى لنا الطريق وثقى أننا سنسلم جميعا ، وهى .. لن يصيبها مكروه .

وعند مدخل الليل قضت معه لحظات سعيدة ثم سهرت ترقب الحوادث .

وبدت لها سيدتها فى هذه الليلة من أشد النساء ضعفا ، وخيل إليها أنها تناديها بحنان شديد وأنها تطلب منها كل شىء بكل ثقة !

وأدخلت لها عشاءها فى السرير لأن الجو كان مائلا إلى البرودة ، ثم طلبت السيدة إليها أن تذهب لتنام فقد تعبت طول النهار :

ــ ولا تنسى أن تغلقى الباب جيدا يا بنيتى ! ثم أطفئى النور .

وخرجت زينب إلى البهو ثم تركت شراعة الباب مفتوحة ، تدفعها اليد ثم تتلصص متسربة من بين الحديد لتفتح المزلاج ، ثم ...

ولم تنم زينب .

وزقزقت المصاريع بزوبعة خريفية . ولما سكتت سمعت صوت سيدتها ينادى عليها وكأنها مثخنة بالجروح ، فخفت إليها ومرت فى طريقها بالباب فإذا به كما تركته فأقفلت الشراعة وأوقدت الأنوار إشارة إلى أن الطريق غير مفتوح . وذهبت إلى السيدة فطلبت منها قرصا منوما لأنها تحس فى صدرها بآلام حادة ، عندئذ تذكرت زينب راحة الذين يموتون وهم نائمون ؛ إنهم سعداء ينتقلون من عالم صامد إلى عالم صامت بلا ضجيج ولا آلام .

وعبرت الطرقة الطويلة راجعة إلى مرقدها فنظر إليها الكلب الراقد فى إحدى الزوايا ، لكنها عرجت على الباب وفتحت الشراعة .

وحين انخرطت فى الأفكار رأت بعين خيالها أشياء كثيرة : رأت زوجا وسيما وهجرة من المدينة .. وحبا وذرية .. ودما وسجنا ورجال بوليس .. ثم كفت عن التفكير لتسمع زقزقة المصاريع من جديد وهرير الكلب المتخاذل الضعيف الممطوط ثم انتظمت أنفاسها فسرقتها سنة من النوم .

واستيقظت على شىء يتحطم وكان أشبه بوعاء من الخزف ، ولم تسمع صوت سيدتها بعد الضجة بل أطبق السكون وازداد عمقا وصمتا فسمعت دقات قلبها ، وهر الكلب هريرا ضعيفا ممطوطا ثم سكت فتجدد السكون .

وقامت فأطلت على البهو فإذا به مظلم وإذا بيدها تمتد ـ بلا إرادة ـ إلى زر النـــور فتبدد الظـــلام . ورأت الشىء الذى تحطم . كان دمية من الخزف استقرت من قبل فوق صندوق ساعة بنـــدولية وكانت قبل أن تنكسر تمثل

امرأة علقت فى ذراعها سلة من الأزهار ، فلما أتاها أجلها تناثرت فى كل ناحية .

وعجبت كيف أن سيدتها لم تستيقظ ، ثم تذكرت القرص المنوم والهدوء المطلق الذى تسبح فيه المريضة ، ورجحت أن فأرا من الفيران أسقط الدمية بدليل أن القط الكبير يجول فى المكان وهو مقوس الظهر مقلبا عينيه الكهرمانيتين بين الأرض والسقف ؛ أما الكلب فقد تفاعلت معه « لقمة الدتورة » التى أكلها بعد المغرب فبسط ذراعيه ووضع ذقنه عند مخالبه ونظر إلى النور نظرة مخدرة جوفاء .

كان رأس الدمية منفصلا عن جسمها ، وبندول الساعة متوقف عن الحركة ، و « الحارس الأمين » مخدر ليؤمن شره ، والقط يبحث عن « الجانى » ، ولا ينقص المشهد إلا « الدم » لتكتمل المأساة .

واقشعر جسدها من الرعب .. وزقزقت نافذة مرة أخرى وأحست كأن أقداما متسللة تصعد الدرج وأن الكلب لو كان فى وعيه لنبح .

وسألت نفسها سؤالا خاطفا وأجابت عنه بسرعة :

ــ هل من الضرورى أن يهدم هذا البيت لأحصل أنا على بيت جديد ؟ وهل من الضرورى أن تموت هذه السيدة لكى أعيش أنا ؟

وأخذت الأقدام تقترب وأخذت تهتف فى ضميرها قائلة :

ــ لا .. لا .. لا .. لن يكون .

وأحكمت إقفال الشراعة وأطفأت الأنوار واندست فى فراشها وأسنانها تئز ، لكنها بعد مدة لا تدرى مداها استيقظت على صوت مرهق يناديها :

ــ زينب .. ألا تزالين نائمة ؟ ألم تعلمى بالذى جرى فى بيتنا ؟ إن كلبنا قد مات .

جائع إلى الحب

كان برنامج سهرتى فى العاصمة يعرض نفسه أمام مخيلتى وأنا أسرع الخطى لإدراك قطار العصر ، ولم أستطع أن أغير ملابسى لأن سنة من النوم غلبتنى وأنا جالس عقب الغداء على الكرسى الطويل .

وكنا ثلاثة فى الصالون : أنا على الكرسى واثنان على الكرسى المواجه . فى الطرف المجاور للشباك جلست امرأة لم أتبين وجهها لأنها كانت تستره بصحيفة تقرأ فيها ، وفى الطرف الثانى من الكرسى نفسه جلس شيخ مسن طويل معمم معه عصا ومسبحة وعلى عينيه منظار أسود .

ولما رأيت كل شىء أمامى مقنعا مستورا تسليت بأفكارى ..

وأخذ برنامج سهرتى فى العاصمة يعرض نفسه أمام مخيلتى فتذكرت أننى لم أسافر يوم الخميس الماضى كما هى عادتى كل أسبوع لأن طارئا مهما حبسنى فى المدينة الصغيرة ، لذلك وجدتنى شديد الحنين إلى « الشلة » ، شلة الإخوان أو أصدقاء القهوة ، ووجدت شخصا معينا منهم يحتل بؤرة تفكيرى ، وكان هذا الشخص هو عزت أفندى .

وخفق قلبى له بالعطف والرحمة وشىء من الحب حين خطر على بالى ، وخطرت على شفتى ابتسامة لا أظن أحدا يشعر بها لو أنه رآها ، وصممت على أن أعرج على القهوة فى هذه المرة لأراهم أو لأرى عزت أفندى على الخصوص .

كان رجلا كالخبز يؤكل فى كل مكان وعلى كل مائدة وفى أى بلد ، يؤكل ببساطة وبغير جهد . وكان على القهوة ملهاة الشلة ومحط نكتهم وكيس النقود المفتوح السهل إذا ما تآمروا على ثمن (الطلبات) .

يغلب فى كل شىء ، فى اللعب والنكتة والجدل والرأى ، ويتوج هزيمته بابتسامة استخفاف وهزة رأس . وإذا ابتسم له الحظ وغلب فى شىء رأيت على وجهه الأسمر المرهق فرحة الطفل حين يلتقط ورقة مفضضة من عرض الطريق .

وذكرت ما داعبه به أحد القساة فى آخر سهرة حين قال له فجأة وهو يلاعبه وعرق الهزيمة ينضح من وجهه :

ـ قول لى يا أستاذ عزت على فكرة ؛ ح تصالح الست بتاعتك إمتى ؟

فهزنى السؤال كأن حجرا أصابنى فى نحرى ، وغمزت السائل برجلى من تحت الكرسى ليكف عن هذا الهذر . وتوقعت أن يثور الرجل لكنه أجاب ببساطة تدعو إلى الإشفاق :

ـ حاليا .. مفيش أمل .

فانبرى آخر يسأل :

ـ ومين اللى زعلان من الثانى ؟

فأجاب ثالث :

ـ من المؤكد أنها هى ..

وكان الأستاذ عزت من هذه اللحظة مشغولا جدا ، كان يبتهل إلى السماء فى تبتل وعبادة ويده مطبقة على « الزهر » أن تعطيه عددا معينا ليكسب الدور ..

ولكن السماء لم تجب طلبه !

وتوقف القطار فى محطة على الطريق فتوقفت أفكارى ، فشاهدت راكبين نازلين وسمعت منادين ومودعين وبياعين وجلبة وصفيرا ، ورأيت

الشيخ المسن الطويل المعمم ينزل من القطار ، والجالسة أمامى تطوى الصحيفة وتضعها إلى جانبها فظهر وجهها .

ومن غير الممكن أن تعرف سنها بالضبط غير أنها كانت فى ريعان شبابها ..

وبحركه فضول فحصت أصابعها فلم أجد فيها دبلة ، أما عيناها فقد كانتا نديتين شديدتى التطلع والجوع .

وأخرجت من حقيبتى الصغيرة إحدى المجلات الأسبوعية وقدمتها إليها واستأذنتها فى أخذ الصحيفة ، فأضاء وجهها بابتسامة وقالت وهى تأخذ المجلة من يدى :

ــ أشكرك .. يا سيدى المحامى .

ــ يا سيدى المحامى ؟ ومن قال لك إننى محام يا آنسة ؟

فقالت ببساطة :

ــ كنت فى المحكمة وأنت تترافع .

وكانت فى هذه اللحظة تنظر إلى وجه وسيم رسم على غلاف المجلة وهى تمصمص بشفتيها فسألتها :

ــ إلى القاهرة ؟

ــ أى نعم .

ــ ومقيمة فيها ؟

ــ أى نعم .

ــ هنيئا لك . إننى أحب هذه المدينة .

ــ لكل شىء مزية ، والمدن الصغرى لها مزاياها كذلك .

فقلت ضاحكا :

ــ ومن أهم مزايا المدن الصغيرة أن الناشئين من المحامين والأطباء يستطيعون أن يعيشوا فيها بسهولة ، ولولا ذلك ما غبت عن القاهرة طول

عمـــرى .

ـــ انت إذن تسافر كثيرا ؟

ـــ كل أسبوع إلا إذا كان هناك ما يمنع ، وفى الأسبوع الذى تعتقلنى فيه مدينتى الصغيرة أحس كأننى فى منجم . يخيل إلى أن المساء يزحف مبكرا على الأقاليم ويتخلف عن مواعيده المقررة بالنسبة للعواصم .

فأجابت وهى تضحك :

ـــ يخيل إلى أنك من الذين يعيشون حياتهم .

ـــ لأننى طول أيام الأسبوع أذوب فى أعمالى فأنزل إلى العاصمة لأستعيد تماسكى ، وأرجع من جديد !

ـــ لتذوب ! هىء .. هىء ..

ـــ لأذوب ! ها .. ها ..

واستغرقت فى المجلة واستغرقت فى الجريدة ، وكانت تقرأ وتتنهد تمصمص وتدق الأرض برجلها وتأتى أعمالا تدل على قلق فى الداخل .. وبعد فترة سمعتها تقول :

ـــ سيمتلىء القطار تماما فى المحطة التالية ، هل تعرف هذا ؟

فسألتها :

ـــ ولكن .. أين تسكنين ؟

ثم سألتنى عن اسمى وأفهمتنى بطريقة جدية أنه يسعدهم أن يسلموا إلى قضاياهم ، لأن خلافا على ميراث نشب بين أمها وخالها الذى يقيم فى مدينتى الصغيرة ، وأن أمها ستلجأ إلى القضاء .

وأعربت لى عن مدى سرورهم لو زرتهم فى بيتهم فى القاهرة حين أكون هناك .

* * *

ووجـــدتنى حريصا على السفر فى مساء الخميس التالى لأجـــل أن أزورهم ، وداخلنى شعور مبهم أن مســألة القضـــايا قد تكـــون أكذوبة أو طعمــا . وكنت بطبعـى قليـل الخـوف يـؤازر قلبـى شـباب خصـب وحيلـة واسعة .

ووجدت الشارع الذى يسكنــونه مترباً فى حى خـط جديـدا لا يضيئـه إلا الأنوار المنبعثة من النوافذ . وكانت قد خافت ألا أعثر على البيت بسهولة فأفهمتنى أن الطبقة الأرضية منه مشـغولة بدكـاكين أجـرت مخـازن ، وعلـى واجهتها لافتة كتـب عليهـا بخــط يـرى فـى الظـــلام الخفيـف : « أولاد جعفر » .

وأوصلنى سلم ضيق دوار إلى شقة فى الدور الثانى كان يلمع فيها نـور ، وكانت هى التى فتحت الباب فى كامل ثيابها كأنها خارجة أو راجعـة مـن فورها .

ودخلت على حجرة الضيوف امرأة عجـوز هـى أمهـا ، ولم يكـن علـى وجهها دلائل الطيبة بل على العكس كان على وجهها ريبة من تابت وقلبهـا لا يريد التوبة !!

وفهمت أنها أم ليتيمتين ، وأن أخاها اغتال مالها ، وسردت على تفاصيل فى منتهى الغمــوض .. ووعدت أنها ستقدم لى فى الزيارة القادمــة مـا يلزم من المستندات والرسوم ، أما هذه فلتكن زيارة .. خالصة لوجه المودة ..

وتركتنا وخرجـــت متعبة وثرثرت أنا وبنتهـا وقتـا استـأذنت بعـده فـى الانصراف .

* * *

لم أذهب إلى القهوة فى الأسبوع التالى و لم أزر أحدا ، بل ذهبت إلى هناك بعد أن تناولت عشائى فى أحد المطاعم .

وكان البيت ساكنا كأنهم مسافرون لكن بلور الباب كان ينبىء عن ضوء بعيد فى الداخل .

وفتحت لى حين طرقت الباب بنية فى العاشرة من عمرها قادتنى إلى غرفة الضيوف حين عرفت شخصيتى ، وكان الليل صامتا لأن الدنيا شتاء والنوافذ مغلقة كأنها . وظللت وحدى فى الغرفة فترة من الوقت عددت فيها نفسى متطفلا ، لكن الفتاة دخلت على بعد قليل ولما سألتها عن أمها قالت فى أسف :

ـ إنها فى المستشفى من ثانى يوم لزيارتك .. لم تنم من المغص الكلوى ثلاث ليال متتاليات ، ولذلك فنحن متعبون يا أستاذ ..

قلت :

ـ صدق ظنى فقد رأيت ظلام البيت قبل أن أدخله . وشاهدت وحشته قبل أن أراه ..

ـ آه الأمر لله .. أشكرك .

ثم أردفت فى أسف :

ـ لا أستطيع أن أتصور اليوم الذى تغيب فيه أمى عن البيت ، نهائيا ! نحن لا نطيق غيابها يوما واحدا .. ما أضعف الناس !

وأطرقت فأطرقت معها خصلات شعر غزير أسود . ولم أر التطلع والجوع اللذين كانا معها وقت السفر فلم أجترىء عليها . وحين أخرجت من جيبى علبة السجاير سألتها سؤالا عابرا :

ـ هل تدخنين ؟

ـ ليس دائما !

ـ حتى ولو كنت مهمومة ؟ إن اليد التى لفت السيجارة الأولى على سطح الأرض كانت حزينة فتسلت بعملها وإحراقها ! خذى !

وقدمت لها العلبة ثم جلست إلى جوارها ونظرت فى عينيها وأنا أشعل الكبريت ، فرأيت التطلع والجوع ينبعان من عمقها قليلا قليلا ..

وخرجت ثم عادت ، وسمعتها تقول للصغيرة وهى على عتبة الصالون :

ـ نامى يا سوسن .

فأجابها من بعيد صوت صغير أظنه صادرا من الصالة :

ـ حاضر !

كانت ضئيلة حتى خيل إلى أننى أستطيع أن « آخذها » وأنا خارج ، أو أن أضعها فى جيب سترتى بدل المنديل ، وأمسكت يدها وسألتها :

ـ كنت أريد أن نتحدث عن القضية .

ـ لا أعرف عنها شيئا . أجلها حتى تعود أمى ..

ـ نتحدث إذن فى قضية أخرى ..

ـ ...

فأطرقت وتركت السيجارة تأكل نفسها وتحترق وعيناها تنظران فى الفضاء .. وحين أحسست بشىء من طيشى قالت لى بقوة لا تخلو من الأنوثة :

ـ اسمع يا أستاذ .. أستطيع أن أزعم أننى أحببتك وأننى أعجبت بمزاياك الظاهرة حين رأيتك ، لكننا حين نبدأ فى العد نقول« واحد » ولا نقول « أربعين » ..

فأومأت برأسى فاهما لكن ذراعى التى كانت خلفها على مسند الكرسى هبطت نحوها رويدا رويدا ونحن غارقان فى الكلام ، كأنها حركة

طبيعية لكل يد حتى استقرت على كتفها ، ثم قلت بعد أن قبلتها :

ـ لا تخافى ! لن أخطئ فى العد .. سأقول : واحـد ، اثنـين . ثلاثـة فـى تسلسل طبيعى كما يفعل كل الناس ..

وجاء صوت من الصالة عاليا مباغتا خانقا يكاد يخنقه البكاء : أبلـه زوزو أبله زوزو ! إنه رجع مرة أخرى ! لن أنام ! ..

فخرجت ضاحكة ورجعت ضاحكة ، وأفهمتنى أن فيران المزارع القريبة تقلق سكون البنية فى بعض الأوقات وأنها من النوع الذى يأكل القطط !

واستطردت وهى غارقة فى الضحك :

ـ انظر .. إلى أى حد تخاف الصغيرات من الفيران ! .

فغمغمت أقول :

ـ بعد سنوات يتغير الموقف !

وأنهت السهرة نفسها فاستأذنت على أن أعود فى زيارة أخرى عسى أن تكون الأم قد خرجت من المستشفى .

* * *

آثرت ـ ولست أدرى لماذا ـ أن أذهب إليهم فى هذه الليلة بعد أن يتقدم الليل ، لذلك عرجت على القهوة فرأيت عـزت فـى حالـة يرثـى لهـا ؛ كـان عصبيا جدا لكن ابتسامة السذاجة كانت تقهر تجهمه المصطنع بعد ثانيـة مـن ميلاده . وأثار ذلك ضحك الأصحاب وتخلـى عنـه الحظ تخليـا بشـعا حتـى رمى بفردة « الزهر » فى عرض الشارع ..

وعـلا الضجيـج وصفـق الشـبان واضطـرب الرجـل وخيـل إلى أن عينيـه ستدمعان ، فأخذته من يده وقلت له :

ـ عزت .. أنا منصرف ، فهل تأتى معى ؟

وتلكأ ، وأغراه بعض الخبثاء بالجلوس فضغطت على عضده فقام معى .

قلت لهم وكأننى أنقذت غريقا :

ــ السلام عليكم .

وتركتهم يصخبون .

وفى الشارع الرئيسى المنير سار عزت أفندى إلى جوارى قصيرا يتعثر فى أذيال بنطلونه وأنا طويل ، رافعا رأسه وكأنه يناجينى .. وأشعل سيجارة ومشى يثرثر :

ــ « شلة غجر » ماذا أعمل ؟ أنا أسلى نفسى حتى لا أختنق يا صديقى . فى المصلحة ابتلانى اللّه بشلة غجر أيضا همهم طول النهار تلفيق المقالب والضحك منى وتكديس الأعمال أمامى ، والرئيس ضيق الصدر لا يستمع لشكوى ، والبيت خال من الناس !

وصفق بكفيه وقلبهما ــ وأخذ يردد :

ــ لا أحد .. لا أحد ! حياة مملة خالية من الاحترام . ماذ أعمل ؟ أنا أعلم أنهم « شلة غجر » لكن ألا ترى أن ذلك خير لى من الوحشة ؟

ومررنا على بائع فول أخضر وضع على عربته مشعلا يدخن لأنه بلا زجاجة ، فأشار الأستاذ عزت إليه وجعل يقول :

ــ نور هذا المشعل الملوث بالدخان خير من الظلام على كل حال يا صديقى .

وابتسم فى سذاجة وأعجبته نفسه حين نطق بهذه الحكمة ، ثم سألنى يريد إطرائى :

ـ هه .. مش كده ؟ أعمل إيه ؟ شلة غجر .

فسألته وقلبى يتمزق :

ـ لماذا لا تصالح زوجتك يا عزت وتعتكف فى البيت ؟ أنت لست مثلهم ولا فى سنهم .

فأجاب :

ـ كم أود ذلك ولكن امرأتى لا تود ، سلوكها لا يعجبنى فأنا أحبها . قلت لها ألف مرة : إن ألسنة الناس تتناولنا بالسوء ولكنها لم ترجع ..

ـ وطردتها ؟ ..

ـ مطلقا !

وهز كتفه قائلا :

ـ يا ريت ! هى اللى غضبت ..

ـ كمان ؟

ـ كمان !

فكففت عن الكلام لأننى لم أجد ما أقول ..

وكنا عند مفترق الطرق فوقف يسلم على وقال آخر ما قال :

ـ مع السلامة .. متشكر جدا فقد أنقذتنى الليلة من شلة غجر .

وعرجت إلى يمينى وسار هو عدة خطوات لكننى توقفت لأننى سمعته ينادينى ، وإذا بى أبصر به وهو يتدحرج على الأرض لاحقا بى وقال :

ـ اسمع يا أستاذ .. على فكرة ، أتعرف هذا الشارع ؟ هناك عند هذه اللافتة الواقعة إلى اليسار والمكتوب عليها « أولاد جعفر » ..

فقلت :

ـ هيه ؟

فاستطرد :

ـ يقع بيت زوجتى الغاضبة .

ـ مع من تسكن ؟

ـ مع أمها .. لو كان الوقت مبكرا لحاولت مرة أخرى أن أرقع العلاقة التى بيننا ، لكن .. طاب مساؤك .

وتدحرج راجعا واتخذ سمته مرة أخرى إلى بيته المظلم الموحش الذى ضنت عليه الأقدار بمشعل ملوث بالدخان .

وقطعت الخطوات الباقية فى خطى مترنحة حتى وصلت إلى الباب ، ووقفت عنده قليلا وأنا أقرأ الخط الكبير على اللافتة بمعونة نور من شباك مواجه .

وتصورت التى تنتظر فوق بعد أن علمت أنها زوجة هذا الطريد .

ولم أدخل عتبة هذه البيت لا فى هذه الليلة ولا فى الليالى التالية ، ولم يرسلوا هم إلى .. لأن شخصية عزت كانت تحفزنى وكانت فى خيالى لا تغيب .

وسألته هامسا فى سهرة أخرى وكان منهكما فيما هو فيه :

ـ هل صالحتها ؟

فأجابنى فى حسرة :

ـ يا ريت !

الدار الجديدة

كانت هى كل شيء بقى له بعد الذين ذهبوا فازدادت غلاوة على غلاوة . و لم تكن فى نظره يوما ما « تذكارا » بل كانت على طول عمرها فى حياته رصيدا عظيم القيمة « يغطى » كل العلاقات التافهة التى تربطه ببعض الناس .

كم كانت عيناه تغرورقان بالدموع عندما كان يسمعها تدعو على نفسها بالموت ! وأصبحت كلمة الموت بالنسبة إليها ـــ فى نظره ـــ حقا كريها .. مستحيل الوقوع .. فقط لأن كريه بالنسبة إليها . إنه يحبها ولكنها لا تحب نفسها ، أو على الأقل هكذا تدعى . أصبح طول العمر فى نظرها مأساة ولدت من دعاء أمها لها بطول العمر ، وهى مع ذلك تدعو بطول العمر لأعز أحبابها .

ومن يكون أكثر أحبابها ؟ إنه هو .. ابن ابنها .. وأنها جدته .

هى كل شيء بقى له بعد الذين ذهبوا من أجل هذا فهى غالية . إنه لا يذكر ملامح أمه إلا قليلا . كل ما يذكره أنها كانت ذات وجه منبعج .. لكنه مع ذلك يتذكرها كلما رأى القمر . أليس هذا غريبا ؟ وليس هذا لجمال طلعتها ولكن للملامح غير الواضحة فى ذهنه ؛ عيون وأنف ووجه

ووجه منبعج كالذى يبدو أحيانا على طلعة القمر .

ومنذ وفاة أمه أصبح يناديها بأمه ، وعندما اكتشف أنها ليست هى التى ولدته لم يجزع كثيرا . ولما كبر شعر بأسى من فاتته تجربة حقيقية مرت بجميع الناس ، كان يريد أن يذوق طعم الأمومة حتى ولو كانت فاشلة . لكنها مع ذلك كانت أعز شىء لديه بعد الذين ذهبوا .. هذه هى جدته .

وعندما كانت تدعو على نفسها بالموت لما ينتابها من آلام الشيخوخة كان ينهض إليها ويحتضنها ، شابا فى الخامسة والعشرين من عمره ، قويا أنيقا ، يحملق فيها بعينيه السوداوين الطويلتى الهدب ويقبل خدها الأعجف ، وتأخذ عيناه ألوان الحناء على شعرها الريفى تحت منديل من الحرير الأسود ، ويرى كيف تنصل ألوان الناس من لفحة الزمن كما تنصل الأصباغ من لفحة الشمس ، لكنه متمسك بها ، لا يريد أن تموت وهى تئن بين ذراعيه بضعف وتململ كأنها تستزيده مما يفعل .

ــ اتركنى .. اتركنى يا عباس .. آه .. لا تضغط على يا ولد .. هل تحب أن أموت ؟

فيجيب بحنان تخالطه دعابة :

ــ لا .. يجب أن تنتظرى قليلا وإلا كنت خائنة .

فتبتسم الجدة عن فم تساقط أسنانه لكن جمال الحنان يملؤه بعقد من اللؤلؤ وتقول له :

ــ آه ! كلكم دجال . آه إيه حتى ولو كنتم صغارا . أيوه ! حتى ولو كنت أنا كل شىء لك . آه ! حتى ولو كنت أباك وأمك ..

وقد كانت حقا أباه وأمه ، وهذه هى المشكلة .. فإن أباه قد مات منذ

سنتين . تركته أمه ابن أربع سنوات وتركه أبوه ابن ثلاث وعشرين . وكان من الممكن أن تتغير الدنيا كلها من حوله ، كان من الجائز أن يتزوج أبوه ، لكن كانت هناك بنات قبل عباس يجب أن يتزوجن وكان هو الولد الأوحد . وأمسكت شخصية الجدة بزمام هذا البيت الريفي حتى تزوجت البنات ثم .. مات الأب .. والتقى عباس وجها لوجه بالجدة ، لم يصبح في الدار أحد غيرهما ، هو وهي والحب وذكريات لا يعرف الشباب طعمها لأنها لا تصلح غذاء له ، غذاء عباس في كل ما يحمله الغد ، أما الجدة فغذاؤها محفوظ .. معبأ في علب الماضي ، تفتح علبة منه كلما جاع قلبها .

كانت لا تزال بين ذراعيه تئن بضعف وتململ تطلب بهما زيادة من حنان .

ــ اتركني .. اتركني يا ولد .. بعد شهور ستنساني .. بين أحضانها .

وتضحك عن فم خربه الزمان ، ويستغرقها الضحك لأنه عاد بها إلى بعيد ، إلى أبعد من خمسين عاما يوم كانت الدنيا حلوة لأنها كانت شابة ، لكن عباس لا يتركها ويستطرد :

ــ أحضانها ؟ هل حضن العروسة أحلى من هذا ؟ مستحيل .. من يقول هذا يا أمي ؟.

ــ أبوك رحمه الله ، وجدك .. يا حبيبي ..

وتركها بين ذراعيه لأنه تذكر شيئا ، وبدا على وجهه الاهتمام وصمت قليلا ثم قال وهو يحملق في أشعة الشمس التي تفرش العتبة داخلة من الباب : إن الدار الجديدة تم بناؤها ، وسننتقل إليها حتما قبل مجيء الجهاز .

وساد صمت ، وأطرقت الجدة إلى حجرها وأخذت تنظر في كفيها كأنها تعد عروقهما البارزة ، و لم يكن عباس يدري بما يجري في عروقها .. كان خوفا وقلقا . كانت تقلب بصرها الكليل في كل ما حولها ، وبدت لها

الجدران الطينية وكأنها من المرمر ، وعروق الخشب التى تحمل السقف من أمد طويل وكأنها من الفضة ، والفرن فى وسط الدار ... الذى طالما خبزت فيه وهى تناغيه كأم تدلل طفلها ، والسلم الخشبى الذى يؤدى بها إلى فوق حيث الوقود وأكنان الدجاج كانت تستمع إلى وقع أقدامها عليه صعودا ونزولا كأنه موسيقى الرقص .

ومن هذا الباب دخلت عروس ابنها .. تلك التى أنجبت « عباس » . وأخواته البنات .. ثم خرجت .

ومنه أيضا .. خرجت البنات عرائس .. ومنه أيضا .. خرج إبراهيم لآخر مرة .. ثم .. ها هو ذا « عباس » يطلب إليها أن تخرج منه إلى الدار الجديدة التى بناها فى الخلاء ؛ خضرة الحقول تصنع لها بستانا بالغ الروعة ، والماء من حولها كأنها جنة ، وليس هناك شغب ولا جيران . وهذه الدار .. آه .. ما مصيرها ؟

ــ ولمن نترك هذه الدار يا عباس ؟

ــ هذه الدار ؟ آه .. آه ..

وسكت .

ــ تريد أن تبيعها ؟

ــ آه .. آه .. كل ما يهم الآن أنه مستحيل أن تكونى أنت فى دار وأنا فى دار .

وسكتت الجدة وعادت تفكر .. هذا كلام معقول . من سيخدمها ؟ هل من الممكن أن تعيش وحدها فى ست حجرات ، فوق وتحت . وعندما يهبط الليل فى الريف تتضاعف مشاكل الشيخوخة . لكن ..

قالت فى نفسها :

ــ لابد أننى سأموت يوم أنتقل إلى الدار الجديدة ؟

و لم تجد طبعا تعليلا معقولا لكن الأمر عندها كاد يبلغ مرحلة اليقين .ولما طال السكوت سألها عباس :

ــ لماذ تكرهين النقلة إلى هناك ؟ إنها دنيا جديدة يا أمى ..

وأخذ يصف لها الأبواب والشبابيك وفسحة الدار الأنيقة واللون الأخضر الذى طلى به الخشب ومنظر مئذنه المسجد تبدو من بعيد لعينها وهى جالسة فى حجرتها وعندما تسمع الأذان فستدعو له ؛ فهذا كله ثمرة جهاده وحصيلة دعواتها له .

غير أن كل هذا لم ينفذ إلى قلب الجدة ؛ كان الجديد بالنسبة إليها مخيفا . مسكن جديد ومع امرأة جديدة ؟

وعادت مرة أخرى تتمنى أن تموت لكنها ذكرت أنها خافت من أمنيتها هذه قبل دقائق ، فقالت لحفيدها باستسلام الأسير حين يلقى السلاح وبصوت بالغ الشيخوخة :

ــ موافقة .

وكانت مئذنة المسجد ماثلة أمام عينها من الشباك تشير نحو السماء وينبعث منها أذان العصر ، والجدة جالسة على سرير متواضع تحملق فى الحقول بذهول من رآها لأول مرة .

كانت التعاسة بادية عليها .. لم تكن تشعر أنها فى وطنها . وعندما كانت تمتطى الركوبة قبل أن تخرج من باب الدار القديمة صباح اليوم نفسه ، خيل إليها أنها تسمع ولولة تأتى من بعيد . وعندما مرت على شجرة التوت الكبيرة الواقعة على حدود المبانى تبسمت سرا ، فقد خيل إليها أن أحدا من الناس سينقلها مثل « الشتلة » الصغيرة .

كان شعورها الحفيفى أن جذورها هناك حيث تزوجت وأنجبت وعاشت مسرات وأحزان ..

ولم تنم طول الليل ..

وعند الصباح كان وجهها ممتقعا تماما ، وهمت أن تنهض للصلاة فسقطت على الأرض . وازداد الموقف حرجا فى نفسها عندما رأت جزع حفيدها عليها وفسرته بواحد من اثنين ؛ إما أنها فى حالة خطيرة فهو يخاف عليها الموت لأنه يحبها ، وإما أنه يخاف من موتها الذى سيؤجل زفافه .

وفى المساء عادها طبيب المركز ووصف لها دواء .

وفى الصباح ألحت على حفيدها أن يعود بها إلى الدار القديمة .

ـ لماذا يا أمى ؟

ـ هذا كلام قلبى ـ سأموت حتما إن بقيت هنا .. ستأتى « بديعة » أختك وزوجها للإقامة معى .. لن أبقى هنا ..

ـ وأقيم هنا وحدى ؟

ـ أنت حر .

ثم لون الغضب نبراتها وهى تستطرد :

ـ أنت رجل .. خمسة وعشرون عاما .. وبعد أيام ستكون لك امرأة . كفاية اتركنى أعود إلى دارى .. دارى .. دارى ..

وكان صوتها قد بلغ مرحلة الصراع فأيقن الحفيد أن لجدته عالما يعجز هو عن معرفة سحره ، وتذكر الطحان الذى يغفى على أزيز أحجار الوابور والسلحفاة التى تمشى بالدرقة فأطرق ، ثم رفع رأسه ليعلن رأيه :

ـ موافق .

ومن أجل خاطر الجدة زفت عروس عباس إليه فى الدار القديمة ، ..

انتقل بها إلى الدار الجديدة بعد عدة ليال .

وكان هرج العرس ومرحه يملأ الدنيا حول الجدة حياة وخضرة ، وكانت تبكى بعدها وهى تزغرد وتزغرد وهى تبكى . وبعد خروج العروسين بقيت فى الدار « بديعة » أخت العريس مع الجدة .

وبعد أسبوع واحد مزقها الحنين إلى الجديد .. إلى الحياة مع عباس وإلى سماع كلمة « أمى » ، إلى مداعبته وأخذها بين ذراعيه ، لكنها ذكرت أن آخر المناظر فى الدنيا قد تغير بالنسبة إليها وأن امرأة شغلت هذا الموضع .

فتنهدت ، لكنها قررت الانتقال إلى الدار الجديدة على الرغم من كل شىء .

وكان الليل هادئا حين اتخذت هذا القرار ، وكانت وحدها فى الحجرة وبديعة وزوجها فى حجرة أخرى ونباح كلاب يأتى فى ظلمة الليل الصائف وأفكار أخرى تتوارد على رأسها .

وعندما سمعت حركة فى صحن الدار نادت بأعلى صوتها :

ــ بديعة .. بديعة ..

ــ نعم .

ــ تعالى .

ــ حاضر .

ودخلت إليها تعلن أن زوجها كان عطشان فخرجت تبحث عن ماء بارد ، لكن الجدة قالت كأنها لم تسمع شيئا :

ــ إن طلع علينا النهار .. يعنى بإذن اللّه .. سأذهب غدا إلى الدا

الجديدة .

وظهرت الفرحة على وجه الفتاة ووافقت ، وخرجت لتحمل البشرى إلى زوجها بأنهما غدا سيكونان .. في دارهما .

وعند ارتفاع الضحى دخلت الحفيدة على الجدة لترتب معها أمر انتقالها فوجدتها قد سبقتها .. فقد انتقلت عند الفجر إلى الدار الأخرى .. كانت قد ماتت ! ورأت على شفتيها علامة إصرار على أن تخرج من نفس الباب الذى دخلت منه وهى عروس .

كرامة شخصية

« كان الزوج مطرقا .. لم يتكلم
لم ينف الحادثة ... ولم يثبتها »

كانت نهاية كل أسبوع تحمل إليها خطابا منه وتحمل إليه خطابا منها ، وبدت الحياة التى يصفها الروائى ولا يستطيع أن يحياها .

وكانت هى واثقة بأن فترة البعد التى فرضتها عليهما الظروف هى التى اكسبت الدنيا طعمها الجديد ؛ فقد رأت زوجها يحلق ذقنه أمام المرآة كل صباح لكن كلمة : « وحلقت ذقنى ثم تناولت فطورى » التى كتبها لها فى إحدى رسائله كان لها سحر وعطر وذكريات .

وتنهدت .. وعادت فنفت من ذهنها هذه الفكرة ، فكرة أن البعد هو الذى أكسب حياتهما هذ الطعم الجديد . وهزت رأسها وهى فى النافذة تنظر إلى لا شىء حين أدركت أن البعد يخدم الحب والكره بميزان واحد ، يخدم الحب بإشعال الشوق ويخدم الكره ببذر النسيان .

وعلى الرغم من أن الفصل صيف فقد كانت هذه المدينة الصغيرة تنام فى وقت باكر ، وتسهر « سميرة » فى الشباك تلقى نظرات على الليل والشجر والنوافذ البعيدة وملعب الكرة الفسيح الخالى الذى أكلت أعشابه أحذية اللاعبين .. وعلى امرأة حامل يسبقها بطنها ويتبعها زوجها تتمشى

على الطريق الهادئ .

ويتيح لها كل هذا أن تفكر فى حياتها وأن تلقى نظرة على الأعوام التى مضت .

أنه رجل لطيف .. زوجها . جاوز الأربعين بقليل يشغل وظيفة فى ديوان المحاسبة وله صلات اجتماعية لا بأس بها ، من النوع ذى الأعمال المتتابعة الذى يتكشف لك منه بُعد جديد بعد ما توقن أنك قد وصلت إلى قراره . وهو لذلك يسحر النساء ، غير أن ثقة سميرة بنقاء صفحته كانت موضع عجب كل من يعرفونهم ، وكانت تحس أن فتور علاقته بها أحيانا شىء مثل فتور النوم .. وينتمى إلى الحيوية مثل انتماء الراحة إلى العمل . وحتى أخطاؤه الحقيقية كانت لا تنال إلا صفحها .. كثيرا .

لكنها فى هذه الفترة التى يغيبها الآن ــ فى الإسكندرية ــ خامرها شعور غامض كشعور العذراء .. ذو طابع ــ خامرها شعور غامض كشعور العذراء .. ذو طابع قلبى أكثر من أى شىء آخر . وخالطها هذا الشعور طول الليلة الماضية فلم تنم كثيرا ، وفى ساعات النوم كانت تحلم بما ستعمله فى الصباح .. فى الصباح الباكر منذ الساعة السادسة والأولاد لا يزالون فى فراشهم ، وارتدت ثوبا بسيطا وخرجت من البيت .

وكانت تبتسم وهى فى الطريق ، وفى لحظة من اللحظات لم تفطن إلى أن الابتسامة التى على شفتيها كانت واضحة جدا إلا عندما ابتسم لها أحد الطلبة ورفع لها يده بالتحية . ما أجمل أن يسمع منى اليوم كلمة صباح الخير على غير انتظار ! قبل أن ينزل إلى عمله .. قبل أن يغادر غرفته فى الفندق الذى ينزل فيه .. ما أجمل ذلك ! » .

وتمت هذه الفكرة على وجه ما عندما كانت الساعة تشير إلى السابعة صباحا فى مكتب التليفون فى المدينة الصغيرة ، و « سميرة » تنظر إلى الساعة من خلال الباب الزجاجى المقفل .

ثم كتبت له آخر خطاب تقول فيه : « إننى أنتظر عودتك التى لم تحددها بعد » وكان مليئا بعبارات حب لم تكتبها إليه من قبل .. عبارات عادية غير مغلفة كما تعودت أن تفعل فقد كان فى بعده يقرأ رسائلها فيحس كأن الحياء يتسلط على أهم كلماتها . أما فى هذه المرة .. فهناك حديث عن القبلة والشفة الغليظة والتلاشى بين الذراعين القرويتين . كانت الرسالة أمامه كجسد سقطت عنه الغلائل .. وخيل إليه أنها تتحدث عن حبها له بصوت عال يسمعه الجيران فلم ينكر حديث الحب بل أنكر ارتفاع الصوت : « يا إلهى ما هذا ؟ » وقلب الرسالة بين أصابعه بإهمال وتاهت نظراته فى البحر الصاخب ثم استقرت وهو يستردها على الراية السوداء المرفوعة على سارية .. وتنهد .. وبحث عن ريقه ، أحس أنه ظمآن .. إلى ماذا ؟ إلى الراحة .. وهل هناك شىء ؟

كان موقنا أن أحاديث الحب لا تصلح إلا همسا ، ويعلم أن « سميرة » تعرف ذلك .

وتذكر رسائله إليها ؛ كانت فيها عبارات غير مغلفة ، فهل أحست هى بنفس إحساسه ؟ ربما ؟ وشرد يتذكر .. كان قادرا فى هذه اللحظة على استحضار كل ما فات .. على قراءة الرسائل التى عندها كانت منشورة أمامه . وقال فى نفسه : « بمثل هذا سنعذب فى الآخرة عندما تصبح

أخطاؤنا ماثلة أمامنا كيوم وقعت ويكشف حجاب الغيبة عن عيون الناس .. آه ! » .

ولم يدر لماذا أوحى إليه أن ينهى مهمته فى الإسكندرية قبل ميعادها المحدد بأيام .. وركب القطار عائدا إلى المدينة الصغيرة . وكان طول الطريق يفكر فى الكلمات العارية والصوت الهامس عندما يفتح الباب بالمفتاح الذى يحمله ويفاجئها فى ركن الشقة .. آه !

ترى ماذا سيكون الموقف ؟ إن المفاجأة ستحملها على البكاء ! حتما !

وتخيلها وهى مسندة رأسها إلى كتفه تبكى كطفلة كبيرة .. ثم .. طعم الماء المالح الذى يلتقطه بلسانه أنه أعظم أنواع الحلوى !

وأدار المفتاح فى الباب برفق شديد ودخل على أطراف أصابعه . كان كل شىء ساكنا والشبابيك مغلقة ، ولم يكن ممكنا أن يراها من الشارع الرئيسى الذى جاء منه لأنها كانت تطل على شوارع خلفية . وعجب ! وعلى الرغم من يقينه ألا أحد فى المسكن فقد رفع صوته ينادى كما يفعل الجريح لنفسه أنه لم يمت نادى : « سميرة » ! فجاءه الصدى . ولم يكن هناك مجال للعتاب فميعاد عودته كان بعد أيام ، نعم وقرية أصهاره على مسافة نصف ساعة بالسيارة من هذه العاصمة الصغيرة .

وحمل رأسه بين كفيه وهو جالس على أحد الكراسى فى المدخل ، ثم أفاق قليلا فرأى ورقة كبيرة تنادى من يقرأ موضوعه على إحدى المناضد . فقام إليها ملهوفا وقرأها .

كانت تقول له : « إننى يا حبيبى سئمت الوحدة والوحشة » ولم تستطع أن تتعذب بالشوق وهى فى السجن الانفرادى فسافرت إلى أهلها فى الريف : « وإذا قدر أن تحضر وأنا غائبة فاطلب أخى فى تليفون

العمدة ! قبلاتي والأولاد » .

وأحس نوازع الشوق تكاد تحرقه ، وأحس بظمأ شديد ، ثم قام بفتح النوافذ وأطل على الملعب . كان هناك فريقان يتصارعان وغبار خفيف معقود فى سماء الملعب وأصوات التشجيع والإرشاد والمخاوف تتناهى إليه . ولم يكن داخل الزوج بأهدأ من هذا كله ، كان فى نفسه غبار وألم وأشياء يصطدم بعضها ببعض .

وترك النافذة وعاد إلى المدخل ليأخذ حقيبة سفره ، وعندما انحنى ليأخذ الحقيبة القريبة من الباب رأى ورقة أخرى .. فى حجم نصف الخطاب المعروف داسها بقدمه وهو داخل ، ومن المؤكد أن يدا دفعت بها من تحت الباب المقفل لتدخل إلى الشقة .. وليراها الداخل عندما يعود .

وقرأها بلهفة . كانت مكتوبة بسرعة وإهمال . إنسان يريد أن يقول شيئا بسرعة وخوف وإن كان عمله لا يخلو من المجازفة : « حبيبتى كنت أطمع فى لقاء آخر قبل سفرى .. لكن .. ظروف (س) .. » .

ولم يصدق عينيه . وعاد فقرأ الورقة حتى .. صدق عينيه !.. وضع خطابها جنب هذا الخطاب ، الحب على اليمين والخيانة على اليسار .. وكاد يجن . إنه شىء لا يصدق . وحمل رأسه بين كفيه وأطرق يذكر الماضى : الجنة والنار ، والدفء والحريق ، حتى بلغ به العذاب منتهاه ، فقرر أن يتصل بتليفون العمدة ويطلب شقيقها ويقول له : إن كل شىء بينهما قد انقضى .. و .. و ..

وعندما سمع جلبة على الباب وأقداما لا تزال تصعد السلم ، وصوت

ولــده وبنته يحاوران أمهما فى شــىء ، فتأهب للقتـال وهـو جـالس خلـف الباب .

ومن فتحة الباب دخل الطفلان أول كل شـىء وأغرقـا الأب فـى عنـاق طويل ، و لم يكن لقاء الزوجين فى حرارة لقاء الأب وأطفـاله فقـد حـاولت « سميرة » أن تحتفى به بما يسمح الموقف الذى يشـهده الأطفـال فـرد عليهـا ببرود ، لكنها جلست إلى جـواره تـثرثر بـبراءة عجـب لهـا وكأنهـا لا تـرى الوجوم الذى يظلل وجهه :

ــ كـانت أياما جمــيلة .. أقصـد التـى قضيتهـا أنـا فـى الريـف .. آه .. مالك ؟.. مؤكد أنك تعبان من السفر .

ــ مؤكد !

ــ آه .. (وضحكت فى سعادة) قلت فى نفسى ما دام زوجـى بغطـس كل يوم فى البحر فلماذا لا أفعل مثله ؟

فرد فى فتور وتحد قاتل :

ــ آه .. صحيح .. واجب .

ــ لكن ...بما أنه ليس هنا بحر مثـل بحر إسـكندرية فلمـاذا لا أذهـب إلى الريف .. البحر الأخضر .. هناك . هه ؟.. لماذا لا ترد ؟

ــ ...

ــ آه هل قرأت الرسالة التى تركتها لك ؟ معذرة فقد كانت أمى مريضـة .. آه .. هل أعجبتك أفكارى ؟ ما رأيك فى رسائل الغـرام التـى أكتبهـا .. هل تراها من النوع الحاد !

فرد وابتسـامة مخيفـة تتخـايل علـى شـفتيه ، ابتسـامة المبـارز حـين يخـرج السيف من جرابه ليشهره فى وجه خصمه .

ثم هز رأسه مرتين وقدم لها إحدى الرسالتين قائلا :

ـ فى حرارة مثل هذه الرسالة ؟

وظل محملقا فيها ، أما هى فقد قرأتها ووضعتها على منضدة برفق . ثم أخذت الأطفال إلى الداخل ووضعت لهم طعاما يشغلهم وعادت إليه وعلى وجهها علامات تصميم شديد :

ـ أين التقطت هذه الورقة ؟

ـ من صفيحة القمامة !!

ـ إذن .. إذن .. فلا علاقة لنا بها .

ـ لقد وجدتها فى المدخل .. مدفوعة بلا شك من تحت الباب .

ـ وأنا مالى !

ـ أليست موجهة إليك ؟

ـ لا يا وكيل النيابة : لكن .. ألا تثق بى ؟

ـ كنت .

ـ والآن ؟

ـ لا .

ـ لا ؟ لكن لماذا أثق بك ؟

ـ لأننى أهل لذلك !

ـ أهل للثقة لأننى لم أجد مثل هذه الورقة التافهة فى أوراقك ؟

فهز كتفه ولم يرد ، وظل يحملق كالنمر الذى ينتظر فرصة الوثوب ، وخيم صمت حاد جدا قالت بعده :

ـ هل تحب أن تعرف الموقف ؟

فضحك حتى لمس رأسه الحائط وقال ساخرا :

ـ إذا سمحت !

فتنهدت وقالت :

ـ أحسست بشوق شديد إليه .. قمت فى الصباح الباكر ولبست ثيابى وكان الأطفال نائمين ..

ونظرت إليه فإذا به فاغر فمه متعجبا من اعترافها ، فاستطردت :

ـ وكانت الساعة تشير إلى الساعة السابعة صباحا حين كنت فى كشك التليفون أطلب الفندق .. فى إسكندرية ..

وصمتت ونظرت إليه ، كان لونه مصفرا وبدت أعضاؤه تتراخى وقلت حدة نظراته ، واستطردت :

ـ ردت على عاملة التليفون هناك وسألتنى : من تطلبين ؟ ثم قالت بعد وهلة كمن تذكرت شيئا : آه .. لقد نزلا حالا .. هل ترغبين أن تكلمى المدام ؟ فلما وافقت طلبت الحجرة التى فيها .. أنت تعرف من صاحبها !.. لا كلم المدام .. لكن ما لبثت العاملة أن اعتذرت .. إنها لا ترد فلعلها فى الحمام .. (ثم استغرقت فى الضحك) .

كان الزوج مطرقا ، لم يتكلم ، لم ينف الحادثة ولم يثبتها . ولما طال الصمت قالت له زوجته :

ـ افرض أن هذه الورقة التافهة صحيحة .. فما رأيك فى قاعدة المعاملة بالمثل ؟

فرد بصوت جريح لكنه قادر :

ـ أنا .. لا .. لا أقر هذه القاعدة !

فردت هى بهدوء قائلة :

ـ ولا أنا .. بالنسبة لى .. فقط ! لأننى أحترم نفسى .

ثم قامت وغابت قليلا وعادت وجلست ثم سألته :

ـ هل تطلب تفسيرا لخطاب الغرام القصير المتعلق بى أنا ؟

فأومأ براسه : نعم .

فقدمت إليه النصف الثانى من الورقة .. وكانت تذكرة طبيب تعودوا التردد عليه ، قطعت نصفها الأبيض وقلبته وكتبت عليه بيدها اليسرى ما كتبت . وكان عنوان عيادة الطبيب على هذا النصف لكن .. على الوجه الآخر .. شطبته بالرصاص ليمكن مسحه عند التحقيق ، وكتبت بنفس القلم الذى شطبت به . كانت تقوم بمسح الشطب وتركيب نصف التذكرة الأبيض على النصف الآخر بهدوء ومهارة وهو صامت صمت الصنم .

ثم قدمت له كل هذا فى صمت .

عندئذ قام وهو لا يتكلم ، فشيعته بكلمة واحدة :

ـ هل عرفت ؟

لكن مستقبل الأيام كان أحسن .. لكن بالتدريج .. قليلا قليلا .. بعد أن استعادت النفوس هدوءها والقلوب ثقتها بمرور الزمن ، كما تسترد الأرض المنهوكة خصوبتها .. قليلا قليلا .

طريق شجر الكافور

« قتلت زوجك ؟ هل من الممكن أن يجتمع قاتلان
على كرسى فى سيارة نقل بمحض المصادفة ؟ »

كانت عيادة طبيب الأسنان فى هذا البندر الصغير مزدحمة بالمرضى هذا المساء ، والصالة الصغيرة ملأتها رائحة العقاقير حيث جلس الرجال على مقربة من حجرة الطبيب ، أما استراحة النساء فكانت عند نهاية الممر وعلى مقربة من مرافق الشقة وتجمع فيها عدد من النساء من مختلف الأعمار والألوان ، لكن طابعا واحدا كان يجمع بينهن كلهن وهو طابع الطبقة الدنيا .

وكان اللغط السائد فى الحجرة أشبه شىء بلغط الدجاج ، ومع الأمهات صبيان لا يكفون عن المطالب ، وفى زاوية الغرفة سيدة متقدمة فى السن تحكى عن ظلم زوجة ابنها لها ، فى الوقت الذى كانت فيه إحدى الشابات فى الركن المقابل تصف ظلم حماتها والبلاء الذى تصبه على رأسها فى الصبح إذا ما أحست أن ليلتها الماضية كانت هنية !

وهناك سيدة فى منتصف العمر كانت تنظر إلى الجالسات ولا تتكلم .. وكان فى عينيها قلق من مرور الوقت وعلى ملامح وجهها ألم يتتابعها على

موجات . وحين يبلغ الذروة كانت تضم شفتيها أو تعض السفلى بثنياهـا ، وفى خدها الأيسر ورم خفيف يدل على أن ضرسها يهددها بخراج . عليهـا ثوب من الحرير أسود اللون عبرت سذاجة خياطته عن طبقة صاحبته ، فهى ريفية الأصل انتقلت مع زوجها إلى أحد البنادر ، تفرق شعرها مـن الوسـط ويتحدث حالها عن أن زوجها مـن ذوى الصناعـات ، أو هـو علـى الأكـثر مستخدم فى مصلحة حكومية ؛ تقف بين فخذيها طفلة بنت خمس سنوات ذات شعر أكرت يميل إلى الصفرة ، تأخذها بين الحين والحين سنة من النـوم فتميل برأسها على جسم أمها ، وإذا استيقظت قطمت قطعة من البسكويت فى يدها ونادت أمها برجاء وتكاسل : « ماما .. ماما .. مش خلاص ؟ » وكانت الأم تنتظر دورها وتنظر إلى الخارجين من حجرة الطبيب عند نهايـة الممر وقد كست وجوههم جميعا تعابير من الألم . على أنهـا كـانت خائفـة كأنها مقدمة على عملية خطيرة لأن أمها ماتت بسبب خراج فى الفـم ظـل ينقلها بخداعه الناعم من مـرحلة خطـر إلى مرحلـة خطـر حتـى انتهـى كـل شىء .

وكانت قد ذكرت هذه القصة لزوجها قبل مجيئها إلى البندر فأرسلها إلى الطبيب بحمية وحماسة ، ولولا عمله الليلى الذى لا يقبل تأجيلا لصحبها إلى هناك .. لكن سفر نصف ساعة فى إحدى السيارات العامة ليس أمرا صعبـا على كل حال .

ولم يوصها بنفسها لأنه يعلـم مقـدار غيرتهـا عليهـا فقـد عاشـرها سـبع سنوات لم يربه منها شـىء . وهـى وإن كـانت باديـة الأنوثـة فإنهـا سـريعة التقلب إذا دهمها خطر ، شأن كل فتاة وجدت نفسها بعد أن مات أبوها فى عنفوان شبابه ، وتزوجت أمها فوجدت الفتاة نفسها وجهـا لوجـه أمـام عاديات الزمن وإغراء الرجال .

وكان الوقت يمر وهى تتململ فهى تريد أن تسافر قبل أن يتقدم الليل . ثم تنفست الصعداء حين قطع الممرض العجوز سؤالها عن الساعة ودعاها إلى الدخول ، فهرولت تقطع الممر إلى حجرة الطبيب وقلبها يخفق ، وشغلت هناك إلى مدى ربع ساعة ثم خرجت أيضا وعلى وجهها تعابير الألم .

وفجأة تحول الألم إلى صرخة عندما فطنت إلى أن الطفلة لم تكن معها ساعة دخولها إلى الطبيب . وفطنت أيضا ــ كأنها تفسر حلما ــ إلى أن الطفلة كانت فى آخر لحظاتها بعيدة عنها تلعب مع بنية تقاربها فى السن فى حجرة استقبال الحريم ، فلما هرولت إلى هناك لم تجد أثرا لها ، وكان اللغظ لا يزال سائدا على الصورة التى تركته عليها .

وقالت بعض الجالسات فى شىء من الرثاء : « لقد خرجت وراءك » .. واستفسر بعض الجالسين فى الصالة عن لون جلباب البنية ثم أكد لها أنه رآها تخرج من هذا الباب .. هذا الباب .. باب العيادة ؟

وليس فى استطاعة أى أم إلا أن تفعل نفس ما يفعله الظمآن الأحمق حين يلقى بنفسه فى البئر كأنما قبل أن يفوت الأوان ويحيق الخطر . وكما نفتش بلهفة عن شىء ثمين سقط فى التراب فندفنه بأيدينا ، أخذت الأم تعدو فى الشارع الرئيسى الذى تقع فيه العيادة وهى تنادى على « فوزية » .. وكلما ابتعدت عن المكان خيل إليها أنها على وشك أن تلقى بنتها .

ومن خلال الغطاء الكثيف الذى سقط على إحساسها فجعله كإحساس السكارى رأت تجمع الناس حولها وسمعت إلى مشورة كثير منهم . وكانت تشرع فى تنفيذ إحداها ثم تعدل بسرعة لتأخذ بمشورة أخرى فى ارتباك الوجوه فكانت تشعل النار فى قلبها .

وكانت تفحص وجه كل طفلة وتكاد تلمس كل شعر مجعد ، وخيل إليها أنها على وشك أن تلقى بزوجها فى أحد الشوارع ، بل لعله لاح لأوهامها فى النور بوجهه المستطيل الأصفر وشعره الحالك السواد وشاربه الرفيع المسبسب . وألهبت هذه الصورة مخاوفها ، واشترك الحنان والخوف فى إلقائها فى النار فصارت تصرخ بأعلى صوتها « فوزية .. فوزية .. » .

وأحست أن يدا قوية تمسك بمعصمها ، ونظرت فإذا رجل ضخم فى ثياب بلدية يبدو عليه أنه من التجار يدعوها بصوت غليظ منخفض ألا تضيع وقتها ، وأنه يجب أن تذهب إلى الشرطة فتبلغ عن ضياع بنتها .

ونظرت إليه بعينين زائغتين ولكنها لم تجد ما تقوله ، وانصرف وظل صوته عالقا فى أذنيها كأنه بقايا أزيز . وفطنت الأم إلى ألم يناوشها فى فكها وصداع يحتل رأسها كله وجفاف فى حلقها ومرارة . ثم فطنت إلى أنها عادت من حيث أتت وإلى أن اللافتة التى تحمل اسم الطبيب ظهرت فى مواجهتها معلقة على الشرفة المستطيلة ذات الحديد المصنوع على هيئة كئوس . وكأنما كان هذا المنظر نذير فشل فخيل إليها أنها فرغت من الجولان فى كل الأزقة وأنه لم يبق إلا اليأس ، بدليل أنها عادت إلى نفس المكان ؟ فصرخت بحلقها الجاف تنادى على بنتها وعندئذ جاءها صوت خائف ملهوف : « نعم يا ماما » .

وتلفتت الأم وهى تجمع ما تشتت من حواسها لتفرق بين الحقيقة والوهم . ولكن ذلك لم يكن وهما بل كان حقيقة فهذه « فوزية » فى يد الممرض تنتفض من الخوف وتقف الدموع على أهدابها وحبات العرق على جبينها الصغير . و لم تسأل الأم أين كانت بنتها فقد كان المهم هو أن تراها فى الوقت الذى أخذ فيه الرجل الضعيف البصر الذى جاوز الستين من عمره يصف لها كيف أنه وجدها نائمة فى دورة المياه الملاصقة

لاستراحة الحريم ، بعدما انصرف المرضى وكان هو فى سبيل إغلاق العيادة .

* * *

ولم تكن تدرى كم مر من الوقت فإن الحوادث قد سرقتها . واتجهت من فورها نحو الطريق الزراعى لتعود إلى بلدها ، وكان الوقت صيفا والليل بادى النداوة خصوصا على شجر الكافور .

وأخذت نفسا طويلا حين صافحها النسيم ، وتذكرت وجه زوجها وقلقه عليها ، ثم تذكرت ثقته فيها عندما تصل بالسلامة وتحكى له حوادث الليلة ، وتوقعت بعض الملامة فأخذت تجهز الإجابة والأعذار .

ولكن مشكلة جديدة ما لبثت أن لاحت على الأفق ، فقد طال انتظارها لسيارة الأتوبيس التى تعتبر المواصلة الأولى على هذا الطريق . ولما ضاع الوقت أخذت توازن بين القلق الصاخب والقلق المكبوت اللذين عانتهما فى هذه الليلة .

وبهر عينيها على بعد ضوء أحد الكشافات ، فرفعت يدها تشير بالوقوف ، لكن حركة الاندفاع نحو الأمام كانت تدل على أن السيارة لن تقف . ووقعت الأم والطفلة فى نطاق النور ثم حاذتهما السيارة ثم جاوزتهما وعبرت ثم توقفت بعد ذلك !

ولم تتحرك الأم من مكانها حين رأتها إحدى سيارات النقل التى تمر أحيانا على الطريق ، لكنها سمعت صوتا يناديها :

ـ يا ست .. يا ست .. تعالى يا ست !

وتقدمت آليا بلا إرادة كما نعانق الأخطار لفرط خوفنا منها . وكان الصوت لا يزال يناديها آمن النبرة هادئا فيه خمول النوم . وتقدمت الأم بعد

أن وازنت بسرعة بين كل الأخطار . فنحن فى طرفة عين نصدر أحكامنا بطريقة غريزية لا عقلية إذا هددتنا المخاوف . على أن المرأة تذكرت أن شخصا ما سينقذها على الطريق .. حتما ، ووصل إليها الصوت من مقعد السيارة :

ــ لأجل خاطر الطفلة .. تفضلى .. وإلى أين أنت ذاهبة ؟

ــ عند محطة (....) أنزلنى لكن .. كم تطلب أجرا ؟

فانخرط فى ضحك هادىء ولم يرد ، وأخرج علبة الثقاب ليشعل لفافة فرأت وجهه المكتنز الأسمر وذقنه غير المحلوق ، ولم يكن صغير السن ومن الممكن أن يطمئن القلب إليه . ونفخ أول نفس من اللفافة وقال وهو يفتح الباب :

ــ أجرة ؟ من يأخذ أجرة على إنقاذ الغريق ؟ أليس من الجائز أن تظلى واقفة حتى الصباح ؟ ..

اصعدى من أجل الطفلة .

* * *

وفى الدقائق الأولى كان الصمت ثقيلا وكانت الطفلة بينها وبين السائق ، ورائحة البنزين وحرارة الجو وصوت المحرك وألم فى الفم وترقب الكلمة ، كل هذه الأشياء كانت أشبه بأصبعين تضغطان على حلقها .

ومرت دقيقتان وتنهد السائق فى الوقت الذى كانت هى فيه تقدر سرعة السيارة بمرور أشباح الشجر إلى الوراء ، وكأنها تقدر خطورة القفز إذا اقتضى الأمر . ثم تنهد السائق مرة أخرى ثم قال للطفلة بعد أن مال نحوها قليلا : « ما اسمك يا عروسة ؟ » .

وضحك بصوت عال إذ لم ترد عليه ، ثم حول الكلام نحو الأم :

ــ لماذا لا ترد ؟ لعلها خائفة منى .. سأبحث إذن عن عروسة أخرى !

ولم يجئه جواب من أحد ، فقد كان يفتح باب الحديث بخبث ثم عاد يسأل الأم :

ــ على فكرة .. ما اسمها ؟

فأجابت بصوت متهالك من الألم وصل إلى أذنه على صورة ظنها إغراء :

ــ اسمها فوزية .

فهتف بسرعة :

ــ فوزية ؟ .. يا لها من عجيبة . تصورى أن حبيبتى الأولى كان اسمها فوزية ! .. فوزية .. !

وسكت ولم تتكلم المرأة فعاد بعد وهلة يقول :

ــ آه فوزية .. فكرتنى بالذى مضى (ثم وجه الكلام إلى الأم) ولكن ما الذى أخرك فى البندر حتى نصف الليل ما دمت ذاهبة إلى هذه البلدة ؟

ــ كنت .. كنت .. فى زيارة أخى .

ــ هل هو فى البندر ؟

ــ لا .. فى السجن .

ــ يا ساتر ! ولماذا هو مسجون ؟

فلم تجب . فمال على البنية وقبلها بصوت عال ثم طلب الجواب .

فقالت المرأة :

ــ انهم فى جريمة قتل .

ــ قتل ؟ يا ساتر !

وسكت ، وعاد أزيز المحرك إلى أذنها ولامست قلبها فرحة الطمأنينة حين استطاعت ــ كما تعلمت من زوجها ــ أن تسارع بإلقاء الرعب إلى قلب من يريد تخويفها . ومضت فترة قال بعدها السائق :

ـ هل تعلمين أنني لا ألوم القاتل أحيانا لأنه قد يندفع إلى الجريمة بلا وعي ؟

ـ ولا أنا .

فضحك في شيء من السخرية ثم سكت ، ثم قال بعد فترة :

ـ ولأنني أنا شخصيا قد قتلت زوجتي وأنا شاب صغير !

فأمسكت المرأة أعصابها ونظرت إلى أشباح الشجر وهي تجري إلى الخلف ، ورأت أنوارا متتابعة لسيارات في طريقها المضاد نحو البندر فحملت إليها شجاعة جديدة . وبما أنها كانت تلفق الأكاذيب فقد رجحت أنه هو الآخر يكذب فعادت تقول وكأنهما في مزاد :

ـ لابد أنك كنت تحب زوجتك ، فأنا أعرف امرأة قتلت زوجها من حبها فيه .. من الغيرة عليه .. دست له السم .

فهتف مسرعا :

ـ امرأة وتقتل ؟ إن جرائم النساء أفظع من جرائم الرجال . يا ساتر ! هل كانت جارتك مثلا ؟

ـ أقرب .

ـ صديقتك ؟

ـ أقرب .

ـ قريبتك.

ـ أقرب .

ـ أختك أو أمك مثلا ؟

ـ أقرب .

ـ أقرب ؟ . ها . ها . ها . إذن فأنت التي قد قتلت زوجك ؟ هل من

الممكن أن يجتمع قاتلان على كرسى فى سيارة نقل بمحض الصدفة أيتها الكذابة ؟

وانخرط فى الضحك لأنه كان كاذبا فى كل ما قاله ، ثم استطرد :

ــ وما دمنا متشابهين فلماذا لا نتزوج ؟ أليس هذا مناسبا ؟

ــ ليس عندى مانع . تعال معى إلى بلدنا لتخطبنى من أخى .

فأجاب بسرعة من رأى خطرا لم يكن على باله :

ــ ليس هذا مهما الآن . المهم الآن هو أن تعرفى أننا سنقف بعد دقيقتين عند « نقطة مرور » وعندما أسأل عنك سأقول أنك زوجتى وهذه الطفلة التى يعاكسها النوم ابنتى ، لأن لوائح المرور تحرم علينا أن نركب أحدا معنا . هل فهمت ؟ ثم .. أليس هذا فالا حسنا ؟ لاتنسى أنك زوجتى !

وظلل الصمت ، وعاد أزيز المحرك ورائحة البنزين وألم الفم تسيطر على مشاعر المرأة . على أنها كانت أكثر سعادة من أى لحظة مضت فقد قرب الوقت وسينزاح الكابوس . ووقفت السيارة أمام النقطة وخرج من المبنى أحد رجال الشرطة وتقدم نحو المقعد الذى جلسوا عليه فى اللحظة التى كانت البنية فيها تقول بأعلى صوتها : « أشرب يا ماما .. أشرب يا ماما » .

ــ هل تريدين أن تشربى يا فوزية ؟ تعالى يا حبيبتى .

ونظرت الطفلة نحو رجل الشرطة الذى كلمها وغيرت نداءها فورا :

ــ أشرب يا بابا .. أشرب يا بابا !

وفى هذه اللحظة فتح باب السيارة ونزلت الأم فى تهالك شديد ، واحتضن الأب الطفلة وقبلها ومال نحو السائق يقول قبل أن يمشى :

ــ أشكرك . هذا فضل لن أنساه لك .

وتحركت السيارة وكلمات سائقها تتناثر على الطريق :

ـ هذا أقل واجب .. ربنا يديم المعروف .

ثم سابق الريح .

* * *

وعندما أخذ الزوج يستوضح الأمر قالت الزوجة فى إعياء شديد .

ـ إنها حكاية طويلة .. ستعرفها فى البيت .. صب على وجهى حفنة من الماء .

السفير الصغير

فى ذلك الوقت كنت لم أتجاوز السابعة من عمرى وكنت الغلام الوحيد فى بيت أبوى .. أعنى الوحيد من نوعى .. فلم يكن لى إخوة من الذكور بل كان لى أختان خطفتهما (يد الزواج) فى سن مبكرة الواحدة تلو الأخرى ، خضوعا للقاعدة الذهبية المشهورة بين الطبقة الفقيرة والتى كنا منها ، وهى أن ليالى الأعياد الحقيقية فى البيوت هى ليالى زفاف البنات إلى بيوت الأزواج .

وقد طبق أبى وأمى هذه القاعدة على الأختين اللتين ولدتا قبلى ، ولا أزال أذكر ليلة زفاف أختى « أمينة » كأنها كانت ليلة أمس ، فلم تكن كبيرة عنى بأكثر من ست سنوات .. كانت فى نحو الثالثة عشرة من العمر ، ولولا شىء من فراهة الجسم مع ميل إلى السمنة والبياض لكانت عروسة مضحكة بحق .. لكنها على كل حال زفت إلى بيت زوجها وأنا فى السابعة من عمرى . وكنت مع السيدات فى حجرة زينتها قبل أن ترحل ، فرأيت خدعا كثيرة من الملابس وتصفيف الشعر حاولوا بها أن يظهروا أختى أكبر من عمرها حتى لا تكون عروسا تدعو إلى الضحك .

والمهم .. هو أننى شعرت بعد زواج أختى الثانية بأشياء لم أكن أشعرها من قبل . شعرت بوجود أبى وأمى فعلا وبأن الشقة ذات الحجرتين الكبيرتين والصالة الفسيحة واسعة أكثر من اللزوم .. كأنها فى مساحة

المدرسة الابتدائية التى أتعلم فيها وفى مثل وحشتها بعد ما تخلو من التلاميذ . وخلت الحجرة المشتركة بينى وبين « أمينة » من مهماتها وأدواتها وملابسها وخصوصا إبر الكروشيه والتريكو التى كان يلذ لى أن أعبث بها فى غيابها ، ولذلك أحسست أكثر من أى وقت مضى بأنى مع أبى وأمى ، وهل يسوء طفلا مثلى أن يكون مع أبيه وأمه وحيدا لا يزاحمه فى حنانهما أخ ولا أخت ؟ إن عقلى فى ذلك الوقت وقلبى أيضا لم يكونا يدركان حدود الموقف ، ولكننى شعرت بحزن وانقباض بعد الأسبوع الأول من غياب أختى لم يكن مصدرهما الحنين إليها ولا الشوق إلى حكاياتها وإبرها والعبث بأشرطتها الحريرية ولكن كان مصدرها أبى وأمى على السواء .وينبغى أن تعرف من هو أبى ...

كان رجلا فى حدود الخمسين يشتغل فى عمل متعب ، وكنت ألاحظ أنه كثير الحلف مرتفع الصوت يخرج فى وقت باكر ولا يعود إلا قبل منتصف الليل إذا ما استثنينا فترة الظهر ووقت الغداء . وكان قليل الخوف كثير المشاغبة يهابه كل الجيران فى الحارة التى نسكنها ، وكنت أعرف ذلك وأعتز به وأستغله عندما أحتك بأحد الأطفال ونحن نلعب فينتصر ظلمى على حقه لأن أهله يخافون شوكة أبى . وكنت أشعر أن قامتى أطول من قامة أى طفل عندما ألمحه وأنا بينهم قادما بقده الطويل وطربوشه المتراخى إلى الوراء وتحت إبطه حقيبة فيها أوراق .. أوراق كثيرة متعلقة بالقضايا والمشاكل لأنه كان كاتبا عند محام مشهور ..

كان إذا دخل البيت تنسى أمى أشياء كثيرة . تنسى الابتسام وأسماء الأيام والأماكن المخصصة لموضع الأشياء ، ويتفقد أبى البيت بعينين قلقتين محتقنتين ثم يرفع شجاره لأدنى سبب . وكنت ألاحظ أن أمى تطيل الصمت والصبر لكنها أخيرا كانت تقابل العدوان بالعدوان فتشتبك كلماتها

السريعة وتتداخل حتى يتعذر على أن أتابع مغزاها وأعرف معناها . ثم تنتهى الموقعة على شكل من الأشكال ويخرج أبى أو يدخل لينام وتلجأ أمى إلى ركن من أركان البيت بقلب كسير تذرف دموعها وتعبث بخرز العقد وهى لا تكاد تفطن إلى أننى على مقربة منها وأبكى فى صمت وأنا أمضغ كم جلبابى .

غير أن أعظم ما كان يخيفنى ويؤلمنى هو أن أسمع صوت أبى فى الصباح الباكر وهو ينادى بأعلى صوته هاتفا باسمى :

ــ ولد يا محمود .

ــ نعم يا بابا .

ــ تعال .. خذ .. انزل اشتر سجاير بسرعة لأن علبتى فارغة من السجاير .

ثم يخفض صوته ويستدرك كمن نسى شيئا هاما :

ــ لكن .. قبل أن تنزل قل لها تعمل لى فنجالا من القهوة السادة .. بسرعة .. بسرعة .

فأفهم أن التى سأقول لها هذا هى أمى ، وأن فترة الخصام بينهما بدأت . ثم أعود وألتقى بأمى لتقول لى :

ــ اذهب إليه وقل له .. ماذا تريد أن تأكل اليوم ؟

وتكون هى فى الحمام تغسل شيئا أو فى الحجرة الأخرى ترتب شيئا وأحمل الرسالة إلى أبى بين يديه خائفا من عينيه المنتفختى الأجفان المحمرتين وأسأله :

ــ ماذا تريد أن تأكل اليوم ؟

فيهتف غاضبا :

ــ سم .

فوقفت فى مكانى يومئذ متسمرا لأننى كنت أعلم أنه كلام غير مفيد .

وخيم الصمت علينا وهو يأخذ آخر نفس من السيجارة ويطفئها فى بقية القهوة فى الفنجان وكأنه نسينى ، ثم انتبه إلى فجأة وقال بلهجة مخيفة :

ـ ألا تزال واقفا ؟ .. ألا تزال واقفا ؟

وتحرك فى مكانه فخيل إلى أنه سيبحث عما سيضربنى به ، فجريت نحو أمى وأخبرتها باسم الطعام الذى يريده ولم يكن إلا « السم » .. وكانت تجمع ملابس غير نظيفة فى سلة استعدادا لغسلها فتوقفت عن العمل ونظرت إلىّ كأنى أنا الجانى ، ثم دفعتنى بيدها فى صدرها بطريقة لم تخل من عنف شأن الخيارى المغلوبين حين يجدون أضعف منهم وقالت لى :

ـ اذهب وقل له : إذا كنت تريد سما لنفسك فماذا تطبخ ؟ « وصرخت غاضبا » اذهب .. اذهب .

فجريت نحو الحجرة الأخرى ودخلت على أبى فوجدته يعد نقودا وهو يهمس .. بعضها من القروش وبعضها من الفضة .

ووقفت مزروعا على مقربة منه حتى فرغ من العد ونظر إلىّ بعينيه المحمرتين ، ثم ارتجفت شفته السفلى وبانت أسنانه الصدئة ، وهممت أن أجهش بالبكاء فإذا به يأخذ بيدى ويجرنى برفق ويجلسنى جنبه على الكنبة ، ثم يسألنى فى صوت خافت لكن بلهجة المحقق الذى يريد استخلاص ما فى أعماق النفس ووجهه مائلا لى ، ورائحة التبغ والقهوة وعرق الصيف يغمر الهواء حول وجهينا . قال أبى :

ـ هيه ماذا قالت لك ؟

فنظرت إليه خائفا وحملقت فيه وأنا أبلع ريقى . فقال بنفس اللهجة :

ـ قل .. لا تخف .. أنا أعرف أنها شتمت . هه .. أليس كذلك ؟

فأومأت برأسى موافقا . فاشتد شحوب وجهه وقال لى مستدرجا :

ـ لا تخف .. قل .. أنا أعرف كل شيء .. قل ماذا قالت لك ؟

فقلت :

ـ إنها تقول : إذا كنت تريد سما .. فماذا تطبخ لنا ؟

فأمسك زندى بقبضته وسأل من جديد :

ـ وماذا أيضا ؟

قلت :

ـ لا شيء .

فقال هامسا يشجعنى على الكلام :

ـ لكننى سمعتها وهى تدعو على يا كذاب .. قل الحق وحاول ألا تكذب .

فرأيت أن الحق فى نجاتى .. الحق كله فى أن أتخلص من هذه الورطة فقلت غير متدبر العواقب :

ـ الحق ؟ .. الحق ؟ .. أنها دعت عليك .

فابتسم ابتسامة غريبة الملامح وقال :

ـ حسن .. ماذا قالت ؟

فأخذت أفكر فى « دعوة » مناسبة فلم يهدنى تفكيرى حتى أسعفنى هو بالرد المناسب قائلا :

ـ لا تخف .. إنها دعت على بالموت ؛ لقد سمعتها .. أليس كذلك ؟

فأومأت برأسى موافقا .

وخـــرج أبى و لم يقــل شيئـا ، وظــللت مـع أمـى فـى البيت لأننـا كنـا فـى إجـازة صيـف و لم تطبـخ شـيئا ولكنهـا انشــغلت بالغسـيل طـول الضحى .

ونادت على بعد خروج أبى مباشرة وسألتنى عما حدث . قالت وكأنها تخاطب شخصا كبيرا :

ــ أنا أعرف أنه لا يريد أن أعيش معه .. إنه لا يحبنى .. فماذا قال لك ؟

فقلت بانكسار وملامح الكذب تبدو على وجهى :

ــ لم يقل شيئا يا ماما .. لم يقل شيئا .

قالت ووجهها نحو الماء الذى غطته رغـوة وفـيرة مـن الصـابون ووجههـا أحمر من الحر والعمل والدموع :

ــ أنا أعرق أنك تخاف منه .. لكن .. لا تخف منى .. أنا أمــك حبيبتـك .. قل .. فأنا سامعة كل ما دار بينكما .

فوقفت حائرا .. وشعرت بحاجة عظمى للكذب .. حاجـة ملحة كلهـا سخاء حتى تصورت أن هذه الأم التى تبتز أكاذيبى بلطفهـا أولى بكثير من ذلـك الأب الـذى ابتز أكـاذيبى بـالقهر والتهديـد ، فقلـت لهـا وأنـا أشــعر بالسعادة لظهور علامات الرضا على وجهها :

ــ صحيح يا ماما .. أنه لا يحبك .

ــ لماذا يا حبيبى ؟

ــ لأنه يكرهك .

فمصــمصت بشـفتيها وســكتت حــتى غــيرت مـاء الغســيل ثـم سألت :

ــ هل دعا على ؟ قـل ؟ .. لا تخـف .. إنـه يتمنـى أن يـرى اليـوم الـذى

أموت فيه .. قل ... لا تخف يا حبيبى .

فقلت بحماسة :

ـ صحيح يا ماما .. لقد رأيته مرة وهو يصلى يدعو عليك بعد الصلاة .

وتوقعت أن أرى غير الذى حدث ، لكننى فوجئت بحفنة كبيرة من الماء الوسخ تنصب على وجهى وهى تصرخ فى وجهى قائلة :

ـ قم امش من أمامى .. فأنت ألعن منه .

خيل إلى أننى أحلم وأن كل الصخب الذى يغمر المكان ليس إلا فى عالم النوم ، لكننى فطنت إلى أن شيئا يتحطم على البلاط يشبه صوته صوت قلة من الفخار . وفتحت عينى ببطء فرأيت النور يغمر الحجرة التى أصبحت أنام فيها مع والدى وأمى بعد زواج « أمينة » ورأيت على الأرض قلة مكسورة لا أدرى لماذا ؟

وسمعت هرجا ومرجا وشجارا بين أبى وأمى والدنيا ليل والناس ساكنون ، والنوافذ مفتوحة من شدة حرارة الجو ..

فارتعدت فى فراشى وزاد خوفى وتمنيت ألا أرى الصباح عندما سمعت نتفا من الحديث تدل على أننى شريك فى الذى حدث ، فقد كانا يتبادلان كلمات قالها كل منهما لى . وفهمت أيضا أن أختى الكبيرة على وشك أن تلد وأن الهدية التى يريد إرسالها كان لها دخل فى الموضوع ..

وأخذت الأصوات تخفت وتبتعد .. ربما لأن النوم عاد فأثقل جفنى . و لم يوقظنى أحد إلا والشمس مرتفعة حيث رأيت أمى وحدها فى المنزل وعرفت أن نومى مع « أمينة » فيما مضى وملازمتى لها هى التى جعلتنى بعيدا عن هذه المتاعب . فهل كانت أمينة تقوم بمثل رسالتى قبل زواجها ؟ .. لكننى ظللت طول الضحى وأنا شاعر بخوف مجهول ، خوف غامض ، زاد منه أن أمى أعرضت عنى .. أناديها فلا ترد على .. وتتجاهلنى وأنا

جالس على مقربة منها . فانسللت خارجا من البيت حتى وجدت نفسى فجأة واقفا فى ميدان الجيزة .

لم يكن فى رأسى خطة معينة أنوى تنفيذها . وقفت أستل حبيبات من الفول السودانى المقشور من جيبى حبة بعد حبة وأنا أحلق بخواطرى إلى نداء سائقى السيارات الصغيرة وهم يعلنون على سفرياتهم نحو الجنوب منادين على الركاب . وتذكرت أختى الكبيرة بعد أحد النداءات ... لأننى سمعت اسم البلد الذى تزوجت فيه .

وصعدت بلا إرادة إلى إحدى السيارات مع رجل كان صاعدا واندسست بين الزحمة ، وظن كل الركاب أننى ابن الراكب الآخر ، وفوجئت عند تحصيل ثمن التذاكر بسؤال صاحب العربة :

ـ مع من يا شاطر ؟

ووقعت فى المأزق وكنا قد بعدنا عن الجيزة بمسافة غير قصيرة وعند ذلك بكيت ، فلما سألونى عن وجهتى أخبرتهم بها فاعترت ملامح السائق دلائل الأنس وأعلن أنه يعرف زوج أختى فهو بقال يقع دكانه على الطريق الرئيسى .. إذن فلا إشكال .

ومن الممكن أن تتصور كل ما يقع بعد أمثال هذه المغامرات التى يعملها الصبيان إثر إحدى الأزمات .. فقد اتصل زوج أختى بأبى وطمأنه بعد أن كاد القلق يمزقه .. هو وأمى ..

وبقيت هناك عند أختى .. حتى ولدت .. وجاءت أمى تحمل الهدايا وكادت تبطش بى بعد دخولها لولا أن حالت بينى وبينها أختى التى عرفت أصل المسألة والتى باتت ليلة بأكملها عقب سمرها معى .. كنت أسألها :

ـ تخاصمين زوجك يا أبلة زينب ؟

فترد ضاحة :

ـ لا يا حبيبى .

فأسأل :

ـ وهو لا يخاصمك أبدا ؟

فترد ضاحكة أكثر :

ـ ولا هو يا حبيبى .

فأسأل :

ـ إن أمى أكبر منك يا أبلة زينب .. وأبى أكبر من زوجك ، فلماذا لا يفهمان ما تفهمانه ؟

فترد ضاحكة أكثر وأكثر :

ـ إنهما يفهمان أحسن منا ، وعندما تعود إليهما فإنك ستعرف ذلك بعد أن تعود ..

وبعد أن أوقدوا الشموع فى السبوع ودوى فى البيت الصغير غناء الأطفال رحلت مع الصباح أنا وأمى عائدين إلى القاهرة .. وعند باب البيت وقفت أنظر نحو نافذة أختى وكأنى أودع الجنة . الجنة . الجنة .

واليوم .. نعم .. لقد كبرت وصرت رجلا ولكننى لم أنس ذكريات السفير الصغير .. أبدا .

الدموع الخرساء

وقف السيد فكرى مذهولا بعد ما اجتاز ميدان الأزهار إلى مدخل شارع الفلكى والصباح فى أوله ، وأبواب المحلات التجارية يفتحها أصحابها ؛ لكن السيد فكرى رأى عند مدخل الشارع جمعا كبيرا من الناس وسمع تساؤلات وإجابات كلها أو فى مجموعها لا تساوى شيئا .. سائل غير مهتم ومجيب لا يبالى كثيرا . وبسرعة .. أدرك الرجل ماذا حدث وعرف سر التجمع .

ولم يكن الأمر فى الحقيقة فى حاجة إلى ذكاء لكنه كان محتاجا إلى شجاعة ، غير أن هذا لا يتنافى مع مظهره الجزع وفمه المفتوح من الدهشة وعينيه الضعيفتين الزائغتين وراء منظاره السميك ..

وبدأت العربات المتخذة من شارع الفلكى طريقا تغير اتجاهها لأنه اختنق بما فيه ومن فيه والأرض غارقة بالماء ، ولم يمض على انصراف عربة المطافئ أكثر من ربع ساعة لكن آثارا حزينة من الروائح والبقايا والدخان عالقة بحيطان ثلاثة بيوت على الأقل .

لهذا ــ وقف السيد فكرى على الرصيف المقابل لمكان الحريق يتأمل كل شىء وكأنه لا يخصه ، ويقلب كفيه فى هدوء مذهول ويهز رأس كأنه يطرد فكرة . وبين وهلة ووهلة ــ وكما حدث لمن هو مستغرق فى النوم ــ

تقرأ عيناه النديتان لافتة كبيرة كساها القدم و لم يجدد خطها منذ زمن .. كتب عليها بخط خال من الأناقة « مكتبة فكرى » .

على مقربة منها محل لصنع الخبز والفطائر كان شارع الفلكى يعبق برائحته عادة من عند المدخل ، وإلى جواره دكان لبيع الأزهار ، وفى الجهة المقابلة لهما محل كبابجى . وقد صنعت هذه المحلات الثلاثة لنفسها شخصية بروائحها جعلت المكتبة على هامش المجهول ، لكن شخصية السيد فكرى ذاتها جعلت صمتها يغلب ضوضاء هذه الروائح .

وهو الآن واقف يمسح صلعته بين حين وحين وينظر إلى الحوائط السوداء ويقرأ اللافتة الفاصلة . و لم تستطع شجاعته المعروفة عنه أن تجعله يعبر الشارع ليواجه الحقيقة ، فالمحل المجاور له قد أتت النار على كل ما فيه ، وعلى الباب الصاجى للمكتبة لفحات ، لكن عين الرجل لم تفارق اللافتة كأنما الذكريات وكل ما فى العمر قد ركز فى هذه الكلمة المكتوبة بخط أنيق « مكتبة فكرى » كشهادة ميلاد أو وثيقة جنسية أو جذور تربط بأرض حتى ولو لم تكن وطنه .

كان الوقت صيفا فأحس أنه عرق ، وتساقط العرق بطريقة ما على زجاج المنظار كأنه دموع ، فرفعه وبدأ يمسحه بطرف منديل بحركة لا تشارك العينان فيها لأنهما كانتا عالقتين باللافتة التى لم يعد الآن يرى شيئا من حروفها الكبيرة .

وأحس بالجزع إذ تخيل أن المكان لا زال ، واستطاع عندئذ أن يدرك عمق الهوة . وإذا كان الشباب زهرة فهذا البناء هو الثمرة التى ولدت بعد سقوط كأس الزهرة ، وأمكنه أن يستعيد ببساطة صورة بقايا الأعواد الخضراء التى أكلتها النار فى محل الزهور .

ولكنه لم يطق أن يتصور أن صفحة الكتاب قد أحرقت ، أو أن إحدى الجثث الفكرية تدوسها العربات فى الشارع . وهز رأسه بطريقة لا إرادة فيها ، هز رأسه ينفى ذلك ! فهو فى عمله هذا يقوم بوظيفة خادم المعبد ، ربما لا يكون فى تطهر الذين يفدون عليه ؛ ولكنه حين يلقاهم وهم يطوفون ويركعون يستطيع أن يقيس بزاوية عينه ما يعنيه الطواف أو الركوع ، أو حتى الوقوف بالباب .

لكنه من ناحية أخرى لا يمكن أن يكون خادما غير متبتل ، ولذلك فقد أدرك معنى الفجيعة وهو يعبر الشارع الذى بلل حذاءه بالماء ، وانطلق بقوامه الفارع نحو الباب فتجمهر حوله الناس .

أخذ بعض الجيران يهنئونه بالنجاة ، وبعض الفضوليين يحملقون فيه .

لكنه عندما أز الباب الصاجى للمكتبة وألقى نظرة على داخلها أجهش بالبكاء . ونظر الناس إلى الداخل ثم عادو يتساءلون : لم يبكى هذ الرجل ما دام قد نجا من الحريق ؟ لكنه سرعان ما عادت إليه طبيعته فصفق بمرح وهو يغتصب ضحكة ما لبث أن انقادت له ليغيظهم :

ـ شكرا لكم ! تفضلوا فليس عندنا إلا كتب وزيت خروع ؛ سهل لكم وعلمكم .

فرد عليه صوت ساخر :

ـ صدقت فقد حرق المهم .. المهم ما فى الأفران يا عم فكرى .

ـ ونسيت ما هو أهم ، محل الأزهار إلى جوارنا قد حرق وفيه الآن ما ينفع المعيز عندك .

صاح الرجل فى وجهه :

ـ ماذا تقول ؟

فرد فى فتور وهو ينصرف إلى الداخل :

ـ أقول إذا ما أكلت أنت ومعيزك فماذا بقى لمثلك من هموم الحياة آ آ آه ! متى تعرف أنها كثيرة ؟

* * *

أحس السيد فكرى وهو واقف وحده ينظر فى أركان مكتبته كأن أمه المخطوفة قد عادت وعاد إلى حضنها . وخلع سترته وعلقها على مشجب ولبس معطفه الأبيض ، وألقى نظرة على الغلام الذى يعمل معه والذى لم يكن رآه حتى الآن فوجده باكى العينين . فمسح السيد فكرى على رأسه بكف يده مسحة ملؤها الحنان ثم انصرف فى هذه اللحظات التى تكون عادة صامتة إلى ما حوله بكل نفسه .

هنا ذكريات شبابه أيام كان يصعد السلم الخشبى المسند إلى الرفوف وثبا كأنه ينزلق عليه ، وكتب قليلة ورواد عاديون .. وضحكات أكثر من القروش ، وشعر غزير أسود وعينان لا بأس بهما .

ورأى على رفوف التاريخ شيئا يخص العالم كله ، شيئا كان من الممكن أن تأكله النار . وقطب ما بين حاجبيه وأخذ يفكر :

« هى عذاب الآخرة وعذاب الحروب ، تعطينا أشهى ما نأكل وتأكل هى المشتهى . أمن أجل هذا هم يحرقون الجثث فى بعض الديانات ؟ » .

ثم نظر إلى أعلى من جديد وردد خائفا : « لو أحرق كل هذا لكانت كارثة أيها الشباب .. يا شبابى ، إذن ماذا بنيت ؟

كان الشارع لا يزال يعج بصنوف من المارة ، وكان هناك عمال البلدية بأيديهم مقشات طويلة يكسحون بها الماء نحو إحدى البالوعات ويصخبون ، وكأنما أعطاهم هذا العمل فى الماء مرح الأطفال يلعبون فى

بقايا المطر حتى ولو تلوثوا بوحله .

كان بينهم رجل قصير جدا إلى حد القماءة فى متوسط العمر لكنه شعلة من العمل والذكاء ، كان صوته رفيعا عالى الدرجة وهو يزاول عملة بعد أن أغرقه زملاؤه برشاش الماء لكن ذلك كأنما فجر فيه طاقة العمل والكلام ؛ كان يعلق على كل ما يرى ويجر زملاءه ــ وحتى المارة ــ إلى الحديث معه .

والسيد فكرى فى المكتبة يتناهى إليه حديثه بين حين وحين مع أصوات نزح الماء ونشيش المقشات .. سمعناه يقول معلقا على حريق الفرن :

ــ زرعنا له قمحنا وحلبنا له بقرنا ، وضاع الدقيق واللبن . (وأصوات المقشات تنش) . هل تعرفون السبب يا رجال فى حريق الفرن ؟

قال رجل :

ــ السبب بسيط هو أن فيه نارا .

وقال آخر متبسطا وهو يرفع المقشة :

ــ كلنا فينا نار ، فلماذا لم نحترق ؟

فرد فتى من المارة يجرى بدراجة يدق جرسها باستمرار :

ــ كانت على بالى !

وعاد الرجل القصير المهرج ــ كان على مقربة من المكتبة ، فوقف وحملق فى الواجهة التى تقف فيها الكتب معلنة أسماءها وتكلم كأنما يناجى نفسه :

ــ احترق الفرن والأزهار وبقيت هذه ، فلماذا لم يحدث العكس ؟

ثم أجاب نفسه بسرعة : « العكس كان مصيبة أعظم » .

ونظر إلى رجل قريب منه وسأله :

ــ أنا لا أعرف القراءة ولا الكتابة وهذه حكاية لها قصة ، لكن قل لى :

هل ترى هناك في الواجهة أو فى الداخل كتبا مقدسة ؟ ربما تكون هى السبب فى عدم وصول النار إلى هذا المكان .

وهمس صوت فى الداخل يناجى نفسه وهو صوت السيد فكرى عندما سمع هذا القول : « كتب مقدسة » ؟ وتلفت حوله .. قاس المكان من جديد بعينيه كأم رأت رضيعها التى غابت عنه . وأخذ يردد وهو يجول فى المكان ببصره المكلول :

ــ نعم .. هنا كتب مقدسة ، لكن ... أى كتاب هنا ليس مقدسا ؟

وجاء صوت الرجل القصير هشا حزينا :

ــ سمعتهم يقولون إن النار عمياء .. هأ هأ .. وهذه العمياء تضئ ولا تبصر . تعالوا معى نفتح هذه البالوعة الملعونة .. إن غطاءها من المسلح فقد سرقوا غطاءها الحديد . (وعلق السيد فكرى على هذا فى نفسه) : « فى الليل بعد أن ترك بابها مفتوحا فى هذا الشارع الهادئ قد سقط فيها عاشق أو اثنان فهتفوا للحب وهم يغوصون .. ثم ابتسم » .

ولما لم يستطيعوا رفع الغطاء جاءوا بعتلة من حديد وحاولوا رفعه وهم يرتلون فى هرجلة : « هيلا هوب » .

أما الرجل القصير فقد كان بينهم يقول مترنما :

ــ غنوا يا رجال .. غنوا .. استعينوا على الشقاء بالغناء ! هيلا هيلا .. هوب !

* * *

فى داخل المكتبة كان السيد فكرى يردد خواطر متشاجرة ، فلم يكن الحريق الذى حدث بالفرن (لأن بداخله نارا كما قال عمال النظافة) بأضعف من أن يورثه القلق .

والسيد فكرى من الذين لا يقيسون الأشياء بأثمانها ، وهو يعتقد أن الثمن وجه واحد من الحقائق الكثيرة للشيء الواحد . فمكتبته لم تكن أعظم ما فى المدينة فإن فى داخلها بالنسبة إليه ذكريات لا يمكن أن تضاهى .

كان غلاما يوم دخلها ويوم أن تقبله صاحبها الكهل ذو الوجه الشمعى واللحية الصغيرة الصفراء . شعر بكل ما فيه بسعادة تشبه سعادة المقرور بأنفاس البيت والطعام والزوجة والفراش .. فقد كان يتيما نال قسطا من التعليم فى رعاية خاله ، وكان ممكنا جدا أن يقف عند هذا الحد .

فوقف هو وخاله عند باب المكتبة التى يعرف صاحبها وكان التعاقد يتم فى صمت لأن الصاحب القديم كان أشبه ببقايا شىء ، لكن هذا الشىء يكسوه وقار صارم لا يعرف الابتسام ولا الحملقة فى وجوه الناس ، كشريحة مستطيلة من شفرة حلاقة رفيعة حادة .

كان السيد فكرى يستحضر هذه الصورة التى أرهبته ، لكنه اليوم يستحضرها بكثير من السعادة فقد كان يكلمه بغمغمة لا برفع بها صوته ذلك الشيخ ، ومعظم أوامره نظرات وإشارات ، فأيقظ في الغلام إبانها كل ما تدخره طبيعة الإنسان من تفهم للمجهول وتغلب على الطوارئ . وبمرور الزمن اتخذ الشاب مداره حول الرجل بسر جاذبية صامتة ليس من الضرورى أن تكون فاتنة ، فنحن مثلا قد يجذبنا الأشرار .

غير أن السيد فكرى أيامها أحس أن إقبال الناس على المكان قد تزايد بسبب المرح الذى فطر عليه ، وقد ارتضاه الرجل فى صمت لأنه رآه أهم سلعة تنقص المكان .

ثم تبين بمرور الزمن أن صاحب الوجه الشمعى واللحية الصفراء سيغادر مصر التى ولد فيها وتربى إلى تركيا ، حيث تقيم عشيرته وتحترف التجارة .

وكان مال الرجل يسبقه جزءا جزءا فى مواسم كطيور تهاجر ولا تعود حتى بدا المحل فقيرا مهملا ضائعا .

بضع سنوات كانت قد مرت عليه وأصبح السيد فكرى فى ريعان شبابه ، وكان شبابه زينة لم يغلبها الفقر ، كل شىء يضحكه حتى المصاعب . وكانت قوته البدنية تمد روحه بكثير من الثقة ، حتى أنه عندما رأى المستقبل المفلس الذى ينتظر هذا المكان ابتسم ساخرا مما سيحدث قائلا فى نفسه شيئا ربما قرأه فى كتاب من التى عن يمينه وعن شماله : « علينا أن نقبل المشاكل بصدر غير ضيق ، فإن لكل مشكلة حلا . وإذا صادفتنا مشكلة من غير حل فعلينا أن نقبلها أيضا ، لأن طبيعتها هكذا نوع من الوجود ذو جفاف صحراوى » .

وها هو ذا يسجل تاريخ هذا اليوم على كل حائط على باب المكتبة من الداخل ، وبخط يشبه الحفر وبقلم على إحدى صوره من الخلف تلك المعلقة فى غرفة النوم الصغيرة ، وبمسمار على سور النيل تجاه سفارة إيطاليا حيث تظلل الكتابة أغصان شجرة شابة وتلمع فى الشاطىء المنخفض أعواد الغاب الوحشى الكثيف ، وعلى غلاف المفكرة من الداخل فى جيبه ، وفوق الصنبور على الحائط حيث يحلق ذقنه كل صباح .

ولم تكن هذه النشوة سوى نشوة الحب نفضت عوده من أعلى إلى أسفل كما تهز قضيبا من الخيزران ، وصبت هذه الفتاة البيضاء الصغيرة بالقبلة الأولى فى نفس الشاب « معرفة » لا تشرح ولا تنقل بيد أنها سر الحياة . ولم تمض أيام على هذه الحادثة حتى فوجىء بحادثة أخرى .

فى نهاية يوم قريب وقبل العودة آخر النهار ناداه ذو الوجه الشمعى وجلس معه فى ركن من المكان ؛ كانت المكتبة خالية تماما من الرواد

وشارع الفلكي يكسوه هدوءه الشخصي وروائح المخبز والأزهار والليل ، وربما رائحة عطر بدائي ساذج تفوح من مسبحة الرجل ، كل هذا تناهى إلى الشاب . ولم يلبث الرجل أن تنحنح وأخذ يتكلم وهو يهتز إلى الأمام والخلف كمن يقرأ القرآن قال :

ـ يا بني ، أنت ولد طيب . يا بني كل غريب إلى عودة ؛ أبوك كان صالحا (ولم يكن يعرف أباه) وخالك صديقي وأنت ابني من قلبي .

جف ريق الشاب مع أنه متوقع غير مفاجأ تماما ، وقال مستعجلا :

ـ نعم نعم يا عمي ، أأمرني .

ـ لن آمرك ، سأعطيك هدية .. هذه المكتبة .

وجال الرجل في أرجائها بطرفه الكليل ووجهه الشاحب كعابد أرهقته العبادة ، وبعد أن أشبع العين عاد فنظر إليه واستطرد:

ـ أنا راجع إلى وطني ، هذه لك ، خذها بكذا .. لا لا ، لا تعترض . والله لن آخذ أكثر من ذلك فأنت خير من غيرك ، ملأها الله لك بركات .

كادت ضحكة أن تفلت من الشاب فقد أحس أنه مغبون ، وما لبث هذا الشعور أن غاض وحل محله ميل إلى الدموع . الحزن والفرح توأمان بحبل سري له شعبتان .

كان الشاب لا يزال في نشوة منحها الحب ، وكان موقنا في هذه اللحظة أنه قادر على أن يقهر أن شيء .. فقبل .. وتم التنازل .

ولم يلبث أن ودع صاحبه إلى السفينة فقد كان كل شيء مجهزا ، وكتب على اللافتة وكأنه يعلن إلى الدنيا ميلاد دولة : « مكتبة فكري » .

لكن ... ما لبث السيد فكري أن عرف أن ديونا مجهولة كان الرجل يمهلها لأنه كان مشغولا بتهريب ماله ؛ لم يكن يدفع الإيجار ولا الالتزامات فوجد الشاب نفسه على حافة الظلمات . كان هذا المكان الذي هددته النار

فى الصباح معرضا بعد رحيل النصاب أن يضيع تماما من يد الشاب ؛ فصاحب العمارة على وشك أن يطرده ، وأصحاب البضائع على وشك توقيع الحجز عليها ، ولم يعد السيد فكرى إلا أن يزود بطنه بمزيد من الجوع . ولم يشعر أنه نادم ، لماذا ؟

كان يمشى فى الشوارع بعد هدوء الليل يدندن بالغناء ، ويلتقى بأصدقاء لا يخيفهم شيء . وكان جميل الصوت ، أما هؤلاء الذين كان يسهر معهم على إحدى مقاهى السيدة زينب ففيهم من تزوج أبوه ، ثم تزوجت أمه ، وأصبح بينهم مثل كرة (البنج بنج) ذهاب وإياب ولطم ، ورحل إلى القاهرة وعمل ونجح . ومنهم ابن أحد الأغنياء الذين أكلوا الأرض بما عليها حتى أدركهم الفقر ، وجاء إلى القاهرة وعمل وعاش . وفيهم ابن الأرملة أطعمته لحمها وسقته دمعها حتى كبر وعاش .

كل هذا كان رائحة طبيعية لزهرة الحياة ، فلن يتأفف من شيء فضلا على أنه قوى البنية والقلب والعزيمة .

واليوم بعد أن نجت دنياه .. مكتبته .. من حريق مدمر لا يسعه إلا أن يتطلع إلى الرفوف وهو يستعيد التاريخ .

ثم هبط ليل ذلك اليوم . هناك شاب يجتاز شارع الفلكى من أوله فى طريقه إلى ميدان الأزهار ورأسه مشحون بأفكار متزاحمة لا يدرى ما المهم وما الأهم : « جماعة نهضة التاريخ » .. مرض أمه .. القلق العام الذى يسود طلبة قسم التاريخ الذى هو طالب به .. ونصف الطلبة يتكلمون عن هذه الجماعة بحماسة واقتناع والنصف الثانى مقتنع باقتناع النصف الأول .. وهو .. ذلك الشاب أحمد فكرى أبن بائع الكتب يرى أن الاقتناع بالعدوى لا صلة له بالعقيدة وعلى أستاذ التاريخ الأستاذ شفيق أن يصبر وقتا ما قبل

تكوين هذه الجماعة . وفى رأس أحمد فكرى أشياء أخرى إلى جوار ذلك ..
كان فى هذه الليلة يجتاز الشارع نصف المعتم أمام وزارة التربية والتعليم ، فرأى الأشجار العتيقة فى فنائها كالوزراء القدامى وقد تلفعت بالظلام . كانت إلى يساره وإلى يمينه مبنى وزارة الحربية ، « فهل تقابلهما مجرد صدفة » ؟ فهما الجناحان اللذان سينهض بهما وطننا إلى حيث يريد ، وسار يسمع وقع خطاه كان يمر بضريح « سعد زغلول » وخيل إليه أن الظلام على هذا المبنى ذى الطراز الفرعونى صار كثيفا عن ذى قبل ، فالزمن عجلاته أفلاك قد أوغل فى سيره ، واللعبة تستوجب تغيير الورق لأن الزمن نفسه قد غير زيه بل ورأسه منذ رمى المصرى بالطربوش ... ووقف أمام الضريح ، « حتى الأطراف القوية التى بصراعها صار بهذا بطلا أصبحت عرينا بلا أسد ، وأسود المجد اليوم تسكن الكواكب حيث تنطلق إليها الصواريخ والمركبات » .

عندئذ سحبه من أفكاره زفير « الديزل » المتجه إلى حلوان وجلبته وضوضاؤه مر خلف المبنى بلا مبالاة ، فرفع ستارة الليل من حوله ثم أسدلت بعد مروره . ووجد أحمد فكرى نفسه اليوم أشبه بروح هائمة هيامها مشوب بقليل من لحم . إنه شديد الشعور كروح حلت بعديد من الأجسام على مر العصور ، وهو اليوم أشد شعورا بذلك . هو اليوم يشعر بأنه صوت محبوس سينطلق بالهتاف ووراءه ما لا يحصى عددا من الناس ؛ ولسرعة الهتاف وشدة الانفعال لا يدرى بالضبط ما يقال . لكن حركات الأيدى وقسمات الوجوه تدل على أن موتى وأحياء قد بعثوا ، وأن فرحة الهاتفين للأحياء أشد لأن الموتى لن يبعثوا إلا بالأحياء ، فهم الوسيلة الحقيقية لعودة الرءوس التى تركت خوذاتها ملقاة إلى جانبها بعد أن قضت نحبها .

وألقى نظرة أخيرة علـى الأرض المعشبة وراء القضبـان الحديديـة الطويلـة والتى يفرشها نفس الظلام الراقد على الضريح ، ثم أعطى كل شىء ظهـره وتابع سيره .

كان لا يزال فى الحالة التى وصفناها شابا يحملق فى الظلام بعيون أقـوى من عيون الصقر ، ويأنس فى نفسه القـدرة على إعـادة كتابـة تـاريخ العـالم وأخذ الميزان من يدى « إلهة العدل » .. هكذا خيل إليه .

وعن له سؤال : لماذا جعلوها معصوبة العينـين .؟. ثـم كيـف تـزن وهـى معصوبـة العينـين ؟ . مـع أن الحـق لا يـرى أحيانـا كثيرة وهـو تحـت وهـج الشمس .

وضحـك فى نفسه « هل كل امرأة معصوبة العينـين حتـى ولـو كـانت إلهة ؟ » .

لكن الفكرة شاءت ألا تـترك خيالـه ، ففـى حياتـه إلهـة عدالـة معصوبـة العينين ، لكن الفـرق بينهـا وبـين تلـك التـى رسموهـا أن إلهتـه علـى شفتها ابتسامة ؛ حتى فى أبكر ساعات الألم تبتسم وحبات الدموع لا تزال تتقـاطر من عينيها . وعندما تذكرهـا همـس باسمهـا وهـو سـائر آخـذا طريقـه إلى ميدان الأزهـار ، همس به بطريقة من لقى عـزيزا على غـير انتظـار وكأنـه لا يصدق : عزة !

ولمع الميدان بأنواره على بعد فنبه الشاب إلى الوجود ومـا لبـث أن أعـاده إلى نطاق الأسرة ، فانفصلت عنه كل الصور التى كـانت تتقاسـم خـاطره ، ولم يعد فى الدنيا إلا صورة أبيـه وحولـه النـاس والكتـب فمصمـص بشفتيه وهز رأسه مليئا بالحب والتقدير ، فقد كان كل همه هم أبيـه أن يعطى وإن لم يعط جـزع . وكـان ينظر إلى بنيـانهم النفسـى نظـرة المـلاح المـدرب إلى

القوارب والبحر ، ولم يدر لماذا تذكر كلمة قالها لهم منذ عهد قريب ؛ دخل حاملا أطعمة كثيرة ضحكوا لها ومنها : « أنا لا أطعمكم أنتم ولكن أطعم الإنسان بداخلكم ، فأنتم لستم أبقارا للحلب ولا خيولا لجر العربات . أنتم في نظرى ذلك الشيء الذى تقوله الموسيقى يلمس العواطف ولو تطاير فى الهواء » . لكن أحمد فكرى ما لبث أن ذكر حين لاحت له المبانى المحترقة أفاق فجأة وكأنه أدرك بعد تفكير أن الحريق كان فى الناحية اليمنى حيث تقع مكتبة فكرى ، وبدت البيوت المحروقة فى هيئة « الوصمة » وذلك بسبب الأنوار الساطعة على الرصيف المقابل ، وروائح الطعام والأغانى الراقصة .. فشعر أحمد فكرى أن هناك أشياء لا ملبس يناسبها إلا الظلام وحده ، فلو أن هذه البيوت تلفعت بسواد الليل مع سواد الحريق لبدا المنظر أكثر وحشة ، لكنه كان أشد قربا من الطبيعة ...

ووقف يتلفت فلم تر عيناه مكتبة أبيه . ولم يلبث أن أيقن أنها بين الأماكن التى أحرقت ، وقد تبدو من غير المناسب فى خطوات القلب أن يحول سيره نحو صديقته عزة ؛ لكن تذكر الأحباب مثل تفجر الينابيع قد يكون من أسبابه أن القلب نفسه قد صدم .

وأخذ الشاب فى الجرى حتى توقفت خطاه فى الميدان ، وحملق فى الناس الغادين والرائحين وسار حتى محطة الترام وهناك وقف يرقب الوجوه فشعر أن مأساته عصرية مثل مأساة الحامل التى أسقطها الزحام فى عربة الأتوبيس صباح هذا اليوم ، فعبرت وجوه قليلة بالألم ولم تعبر وجوه كثيرة عن شيء ، وضحك منها بعض الشبان ، وبعد أن نزلت رموا لها بفردة حذائها من نافذة العربة .

شعر أحمد فكرى حين تصور ما لقيه أبوه من فجيعة صباح اليوم — والابن لم يعلم بها حتى الآن — تصور أن والده بكى وأن الناس سخروا من

دموعه التى بللت نظارته السميكة ، وتمنى له بعض الناس أنه لـو كـان يملـك بدل هذه الكتب القابلة للحرق مخزنا واحـدا مليئـا بـالخردة ليكسـب ويـأمن ويركب السيارات المستوردة .

وأحس الشاب بضجر لكنه آثر أن يعود أدراجه إلى شـارع الفلكى مـرة أخرى . كان قلبه يخفق ؛ كان أشبه ــ بعد الأفكار التى أسكرته منـذ سـاعة ــ بمن هبط من أعلى برج القاهرة فرأى حقيقة حجم المناظر والأشياء والناس بعد أن زالت خدعة النظر من أعلى .

وعند مدخل الشارع وجد أن كل شىء لم يتغـير ، كمـا أنـه أفـاق علـى وجود مكتبة فكرى ؛ حقيقة أنها كانت مغلقة وعلى بابهـا الصـاج لفحـات نــار ..

لكنه عندما سأل بائع الكباب طمأنه وهـو يقلـب الشـواء علـى الفحـم ، ومع ذلك فإنه انزوى نحو الرصيف الآخر ووقف على مقربة من الباب المغلق للمكتبة وفى ظلال الجدران السوداء وذرف دمعتين ..

ولم يسـمح لخيـاله بعد تلك الدموع الخرساء أن يتصـور شـيئا ؛ كـان كـل ما يهزه فى الداخـل هو أن يرى وجه أبيه ، أن يرى الوجه الحبيب المستدير والبشرة المشربة بالحمرة والفم الذى كأنه نصف فم . فعاد أدراجه فى شارع الفلكى من جديد حتى وصل إلى بيته عند آخر الشارع .

وجد أمه فى ألم صامت قد نسيت ما بها وحمدت اللّه ، أما أبوه فقد قبله خطفا وعاد ودس وجهـه بين طيات صحيفة المساء متشاغلا كأن الابن لم يعلم شيئا .

جلس إلى جواره صامتا على أحـد الكراسـى الأسـيوطى فـى الصالـة ولم يلبث أن ضحك بخبر قرأه فى الصحيفة فذهل الابن وسارع بالسؤال :

ــ ماذا حدث فى شارع الفلكى يا أبتى ؟

ــ الفلكى ؟ كان اليوم يرصد كوكب نحسى ؛ لكن لماذا تسأل ؟

ــ كنت هناك .

ــ إذن ولماذا تسأل ما دمت كنت هناك . نجونا ، نجا بعضنا واحترق البعض . لكننا جميعا أحسسنا وقع النار على جلودنا .

ثم ربت كتف الابن واستطرد :

ــ أيها الولد المسكين ، لابد أن تتعلم كيف تغلب المشكلة بتصغير حجمها . اسمع ماذا كنت أقرأ فى الصحيفة .. قصة .. شاب بعث لوالديه فى مدينة أخرى برقية ليحضروا حفل زفافه ، فحضرا ومعهما أقاربهم . وشد ما ذهلوا عندما ذهلوا عندما وجدوا العروسة غير التى عرفوها . لا . لا ، لم يغيرها . عجوز شمطاء ، تبين أنها صاحبة البيت ، فلما ثاروا عليه قال لهم :

ــ ماذا يحزنكم ؟ حدأة فى عش خير من يمامة لا تجد عشا . لا تصرخوا ! فوزن المشكلة يعرفه من يحملها فوق رأسه . ألا ترى فى هذا شيئا يضحك ؟

فابتسم الابن ابتسامة سقيمة رأى الأب ملامحها فرمى الجريدة على كرسى مجاور وقال له :

ــ ما هى يا أبتى ؟

ــ أن تنجح فى الحصول على عش لكنه مسكون ، مثل صاحبنا هذا .

وضع الشاب يده على ذقنه وأطرق ، ثم وكأنه ألهم شيئا ما :

ــ لن يحدث ذلك ؛ أنت تعرف أن العش لابد أن يسكنه طائر بغير هذا لن تكون إلا وكرا . ومع ذلك فلابد أن يكون لكل كائن مكان ، والكائن

يا أبى يخلق المكان إلى حد كبير . قالوا الجذر يتجه دائما إلى أسفل والساق تتجه دائما إلى أعلى ولو أرادوا غير ذلك .

ــ جيلنا يعيش فى تجربة ، وعلينا أن نختار أما الأعشاش فى ذوائب الشجر ، وإما الأحجار فى باطن الأرض .

كانت حماسته حزينة ، وخيل إلى الأب أنه رآه أكثر شحوبا وأن وجهه ليس فيه أكثر من عينين سعتهما غير عادية ، وأنه يبدو على أهبة الخروج من جديد . كان مأخوذا كأنما نسى قطعة هامة من قلبه أو جزءا من ذاكرته . وخيل إلى الأب أن وزن ابنه أقل كثيرا من المألوف وأن فخذيه فى البنطلون باديا الضمور ، فقال فى نفسه :

« هذا هو الذوبان ! وعرك قلبه الألم وشعر أن قضية الأعشاش والزوجات لا تشغل باله كثيرا ، فهو كما يعرف كل الناس أن لكل كائن مكانا لكنه زاد على غيره بأن الكائن يخلق المكان إلى حد كبير ، كما زرعوا الخضروات على أخشاب طافية تحمل التربة ، ثم قال :

ــ السلحفاة يا أبى تحمل ..

ــ دعنى أكمل لك ، فهناك أسطورة شعبية تقول : كانت السلحفاة فى الأصل امرأة سرقت رحى جارتها ، فطلبت منها الجارة أن تحلف فحلفت باطلا ، فمسخها اللّه إلى زاحفة من الزواحف تحمل الرحى المسروقة على ظهرها وتمشى بها جيلا بعد جيل . هل يضحكك هذا ؟ إنها أسطورة على كل حال .

ــ وهذه المخلوقة لما نزلت إلى البحر واختارته مكانا أصبحت كائنا بحريا طويل العمر .. عمرها مرعب .. نصف ألف عام !

قال الأب مداعبا :

ــ اتخذوها ــ شارة ــ لجمعيتكم ، فقد شهدت حوادث تاريخية كثيرة .

على كل حال هل سمعت الأغنية الجديدة يا مؤرخ المستقبل ؟

ــ أى أغنية تقصد ؟

فقال مستغرقا فى الضحك :

ــ إن لاقاكم حبيبى سلموا لى عليه !

كان الابن فى هذه اللحظة قد نهض لأنه على موعد .

تحسس الأب ابنه فى حنان وهو يلقى بالمقطع الأول من الأغنية ، ويقول مازحا :

ــ إنها من تأليف امرىء القيس الشاعر الجاهلى ــ يعنى الذى عاش فى العصر الجاهلى والذى كان يحب اللحم جدا والنساء جدا والخمر جدا كذلك الغناء ، ولما بلغه أنهم قتلوا والده أراق النبيذ على الأرض فجرى فى لون الدم ثم ذهب إلى قيصر ليساعده فى أخذ الثأر . ومشى يغنى فى الصحراء هو وصديقه والليل مظلم : إن لاقاكم حبيبى سلموا لى عليه !

كان لا يزال ممسكا بيد ابنه والابن واقف مذهولا فاستطرد الأب : قرأت هذا فى كتاب قبل أن أبيضه . لكن هل صدقت ؟

ــ لم يوجد بعد زمان أهله لا يقولون إلا الحق .. الحق . لكن يا أبى كدت أعلم أن النفوس تسارع إلى الكذب كما نسارع ونحن أطفال إلى كتابة الرقم مقلوبا .

ثم اتجه الابن إلى الخارج فقال له أبوه وكأنه يذكره بشىء هام :

ــ لا تنس يا أحمد .

ــ ماذا يا بابا .

ردد ساخرا :

ــ إن لاقاكم حبيبى .. ! مع ألف سلامة ، وقل فى شارعه أن يبحث عن كواكب السعد .

الليل غامض والجو يميل إلى البرودة .. وسماء « دمنهور » ذات الطابع الإسكندرانى فى مثل تلك الليالى وشهقة واحدة من نسيم هذا الليل تطفئ الظماء ، والسحاب ناصع مكدس أبيض على درجات حتى ترى بعضه مثل القطن المندوف .

عربة حنطور فيها شابان قد جاوزا العشرين جالسان متجاورين فى صمت .. إلا قليلا ، يسمع كل منهما إلى وقع حوافر الجواد وقرقعة السوط ، أو يتأملا ظهر الحوذى المسن وهو يدعو جواده إلى السرعة وكأنه يرجوه فى شىء من الزلفى .

كان أحد هذين الشابين يتأمل الطريق فى غمرة من الراحة .. هو الغريب عن المدينة .. أحمد فكرى الذى ينزل ضيفا عند صديقه المجاور له فى العربة . وكل شىء فى المدينة الصغيرة بدا جديدا عليه ، فالحى الشمالى من دمنهور أشبه بضاحية هادئة تبرق فى جانبه ترعة المحمودية فى الليالى المقمرة ، ويلفع القمر ذوائب الأشجار بسحره القديم قبل أن تفسده يد العلم .

من أجل ذلك ود أحمد فكرى أن تدرج بهما العربة إلى ما لا نهاية ، فالموقف فى نظره لا يخلو من رومانسية . فأين هذا من ترام العاصمة ، واللحوم البشرية المجلودة تنضح بالعرق والضجر والترقب والفضول .

وعاد أحمد فكرى من جديد يلقى بسمعه إلى تزلف الحوذى : « شى .. أوه شى يا سيدى .. شى با باشا » ، وأخيرا ضجر فلسعه وتحول التزلف إلى تهديد : « طب شى يا حمار » .

أسرعت دورة العجلات ومالت العربة نحو اليمين ونحو اليسار تتأرجح ، فتكلم الحوذى يوجه الكلام لسنا ندرى لمن : « معذور هات أكثر من خذ عادتنا دائما . زاحمناك فى الفول يا حبيبى ، لكن . شى يا باشا ؟ » وكأنما

رق قلبه واستعاد الصداقة المألوفة بيننا وبين هذه الكائنات ، أو استعاد صفة العدل وألقى بنظرة كليلة إلى الخلف حيث يجلس الراكبان ، وقال من خلال ضحكة حولت فمه إلى فجوة :

ـ لا تؤاخذنا ، إن كنتم تضايقتم فبيت السيد السلحدار هو الذى تغطيه الأشجار .

وأخذت دورة العجلات فى البطء ، ونظر أحمد فكرى إلى صديقه نظرة تؤطرها بسمة طويلة ، وما لبثا أن هبطا من العربة لتستدير راجعة .

وبينما كان جرس الفيلا يدق كان الحوذى يلقى تحية على المسافرين : حمدا للّه على السلامة يا سيد أمير أنت وضيفك .

وكفت فرقعة السوط ونداءات الاستعجال .. سكت اللبل !

* * *

اجتازا حديقة البيت الذى تزحمه الأشجار وتنتشر فيه أحواض الزهور بطريقة ريفية ، وقبل أن يصعدا إلى البهو كانت كلمات الترحيب من أمير السلحدار تتوالى على سمع صديقه أحمد فكرى الذى كان يقول فى نفسه : ما هذا كله ؟

خف خادم كهل ومن ورائه غلام يخيل إلينا أنه ابنه لمقابلة الوافدين ، وفتحت حجرة استقبال كبيرة وأضيئت أنوارها فنبح كلبان فى الحديقة ، ودخلت عدة فراشات من النافذة الشمالية على الرغم من إسدال الستار . ومن الباب للنافذة دخلت هرة حالكة كالليل تخطو على سجادة تبريزى فى سكينة يتمناها الناس فى هذه الأيام ، وحملقت بعينين كهرمانيتين كأنها ترحب بمقدم أمير السلحدار من القاهرة . ثم دخل الرجل والغلام معه ؛

الغلام يحمل صينية الشـــاى والرجل معه كأنه يرشده لطقوس مهيبة ، ثم ما لبثا أن انصرفا . ومرت الفترة التى تعقد فيها الموازنة عـادة بـين البيـت الـذى نسكنه وبين غيره إذا ما دخلناه للمرة الأولى .

وفـرك أحمد فكـرى يـده ، ثـم رد تحيـة صديقـه وتنـاول فنجانـه وأخـذ يرشف .

قال والنسيم يداعب الستائر على مقربة منه :

ــ أهذا هو البيت الذى ولدت فيه يا صدبقى !

فابتسم أمير ابتسامة مستحيية وقام فهصر الستار فنفذت إلى القاعة أنفاس الجناين ، ثم قال وهو يعاود الجلوس :

ــ لا .

وهز رأسه يؤكد بعد أن قال لا واستطرد :

ــ ولدت فى بيت آخر فى دمنهور لم يعد له وجـود ، تقـادم وانهـدم ثـم لحقه التنظيم فأصبح جزءا من ميدان . أرتنى أمى ذات ليلة ونحـن فـى حـى « أبو الريش » . المخدع أصبح شارعا . (ولاحـت علـى فمـه ابتسـامة ثـم وئدت) وكل البيوت المجاورة تغير شكلها بعـد أن أطلـت علـى الميـدان ، وحتى نوع المكان تغير .

ــ شـىء مثير للخيال ! الحـوادث والأماكن مثـــل اللـون والملـــون .. لا ينفصلان ؛ لكن أمى حتى الآن لا تزال تنام على سرير عرسها ، والمكـان الذى ولدت فيه فى حى القلعة وأطلقت فيه أول صرخة فـى وجـه الحيـاة . يوم ميلادى قد صنعوا له برواز ..

ــ صنعوا له برواز ؟

ــ نعـم عربـة أطفـال .. ليسـت مـن الجلـد ولا ذات عجـلات معدنيـة ،

أصلها صندوق فحولـوه إلى سرير صغـير .. أستطيع الآن أن أصفـه بفضـل حديقة منزلكم والليل ونداه على الأشجار : صنعها نجار زنجى أبيض الشـعر وعمـل لها عجـلات مـن الخشـب ، وفـى هـذا الـبرواز أطلقـت المناغـاة والصرخات واحتضنت زجاجات اللبن الصناعى : (ثم شرد قليـلا) لعلـك لا تتصور يا أمير ماذا يكن قلبى لهذا السرير ولتلك العربة ربما .. ها ها .. لو تزوجت (وخفق قلبه دون توقع لأنه تذكرها) .. آ .. آه .. لو حدث هـذا لوضعت أول طفل لى عند نقطة البدء التى انطلقت منها حياتى ، أعنى هـذه العربة . أما أنت .. أنت يا صديقى ..

هز أمير السلحدار رأسه وهو محتضن ركبته بـين كفيـه ومـط شـفته مثـل عادته إذا ما حاصرته فكرة .

كان أحمد فكرى يحملق بين آونة وأخرى فى إحدى الصور المعلقـة علـى الجدار وقد خمن لمن تكون هذه الصورة ، وكـان أمير السـلحدار يفكـر فـى الفرق بين مزاجه ومزاج صديقه . وفجأة قال أمير :

ــ حقيقة الأمر أن حياتنا كانت تتغير بوجه سريع ، فـأبى لم يكـن علـى

ـ هذا القدر من الرخاء .

أشار أحمد فكرى نحو الصورة المعلقة وسأل بصوت :

ــ هو هذا ؟

ــ هو هذا !

هز الضيف رأسه فى تأمل واحترام لا يخلو من تكلف . واستطرد أمير :

ــ كان دـما يشتو مشقة الحياة ، وكان يبدو شديد الإرهاق ؛ لكـن .. بعد ما رخصت له الحكومة بأن يبيع الأسلحة تبدلت الدنيا !

وأجال بصره فى القاعة وفى المكان كله كأنه يدعو ضيفـه إلى ان يحاكيه

وأن يرى كل ما حوله فى بيتهم .

ونبحت الكلاب وسمعت صلصلة السلاسل عندما سحبتها على الأرض ، وتحركت فى المدخل أقدام . لم ير الضيف منها سوى الكهل والصبى .. وهمسات .. وسمعت سعلة خشنة قوية ووقع أقدام من حذاء يبعث صريرا .

وكان الشابان فى إنصات كامل ، فلما أهلت قامة والد أمير السلحدار من الباب نهضا واقفين .

دخل رب الدار مرحبا بشوشا وإن كان وجهه أكثر ملاءمة للعبوس .. وسلم .. كفه الضخمة احتوت كف أحمد فكرى بقوة ، وقبل أمير يد والده وجلس الثلاثة .

ومرت كلمات ترحيب سريعة لأن عين رب الدار كانت تموج بالانشغال ، غير أن أحمد فكرى وازن خلسة بين الشخص والصورة التى عجزت عن تصوير القسوة فى العينين .. كانتا فى الصورة حالمتين فخفف ذا من حدة الوجه ذى التقاطيع الكبيرة والفم الواسع ، فتحة خلقت للالتهام ! .

ولأمر ما تصور أحمد فكرى مولد قبلة على هذا الفم ..

فكاد يضحك ، ودخل الخادم الكهل فدعاهم للعشاء ونهضوا .

وألقى الضيف نظرة على الحاجبين الغليظين الأسودين الملتصقين تماما فى وجه رب البيت .. كانت حجرة الطعام مقابلة لقاعة الاستقبال . واسعة جدا ، وهى مثل حجرة الاستقبال فيها أشياء لا داعى لها ذات طراز قديم فخم يبدو أنها مشتراة من أحد المزادات ، وفيها أيضا صورة زيتية لرب الدار . قال أحمد فكرى فى نفسه عندما وقع بصره عليها فجأة ثم رآها منعكسة

فى إحدى المرايا فأصبحت صورتين ، قال : « ما لهذا الرجل يؤكد وجود نفسه بهذه الطريقة ؟ أربع صور له فى رقعة صغيرة من البيت ! » .

وكف أحمد فكرى عن التفكير لأنه بدأ ينصت إلى رب الدار ..

وكان يتكلم وعيناه إلى طبقه وشدقاه مليئتان إلى حد يصعب معه الكلام ، عوده يميل نحو القصر والامتلاء ولون بشرته أسمر سليم وذراعه قصيرة مليئة بالشعر وكل حركاته تدل على القوة ، وكان ممكنا أن يختفى وميض عينيه لتقدم السن وغزارة الحاجبين ، لكن ذلك لم يقع . فأكدت الخلفة أن المخلوق صالح للمهنة ، فمن المؤكد أنه اطلق آلاف الرصاصات على أهداف فى الخلاء قبل احتراف بيع السلاح المرخص .

هكذا بدا السيد محمد السلحدار فى عين ضيفه الشاب ، أما الميزان فى الناحية الأخرى فلم يكن ذا بال ، فإن رب الدار كان ينظر إلى ابنه نظرة من يعطف على طفله ولا يحاول أن يخالفه وإن كانا مختلفين ، وغالبا ما تكون هذه النظرة قد لامست ضيفه ، ومن المؤكد كذلك أنه يحبه وينظر إليه مع هذا الحنون نظر المغامرة إلى ولد يخاف الظلام ، والابن يبادله تلك النظرة النفسية لكن الجو العائلى خصوصا فى الريف قلما يعيش على المكاشفة .. جو الغوامض !

تجشأ محمد السلحدار فى ارتياح شديد وسأل أحمد فكرى عن القسم الذى وقع عليه اختياره هو وابنه فى كلية الآداب بالقاهرة .. قسم التاريخ .. وهز رأسه وزوى ما بين حاجبيه فتتكاثف الشعر المقرون :

ـ ما فائدته ؟ لماذا اخترتماه ؟

وأدرك الضيف ما يجب أن يقال فى الحال ، فرد بتسامح وابتسام :

ـ فى الحقيقة يا عمى .. الحقيقة .. هل تريدها منى ؟

ـ فقط لا غير .

ـ هو قسم لا فائدة فيه !

وألقى نظرة ناطقة إلى زميله أمير ، على حين كان الأب مشغولا بتجريد ورك دجاجة بأسنانه من بقية اللحم ، فلما أفاق رد :

ـ قلت لك ذلك يا أمير فلم تصدقنى .

ـ ذلك لأنك لم توافق على قسم الفلسفة .

فتحفز الأب ـ وكأن الموضوع وليد يومه و لم يمر عليه عامان ـ وقال :

ـ لا تذكر هذا الاسم . أنا لم أدرس هذا الكلام لكن عندى عنه خبرا .. هو أن الذين تفلسفوا .. ضاعوا ! .. ضاعوا !

ولما فرغوا من الضحك سأله أحمد فكرى فى خبث مؤدب :

ـ والذين درسوا التاريخ .. ماذا جرى لهم ؟

جرع كوبا من الماء ورد وهو يلعق شفتيه :

ـ أنتم أحرار ، لا أدعى علما ولكنى أملك تجربة . كل ما فات مات ، والتاريخ شىء ميت .. التاريخ هو ما نعيشه فقط لا غير .

فقال الابن :

ـ لكن يا أبى هل يمكن أن تفصل حياتك عن حياة جدى ، أو أن أفصل حياتى عن حياتك ؟ ما فات مات .

قال الأب :

ـ الرصاصة عندى بنت بندقية ، فإذا ما انطلقت منها تمت ولادة بلا وراثة . دعونا من هذا .. دعونا نرحب بالضيف .

قال أحمد فكرى :

ـ شكرا يا عمى .

فقال رب البيت :

ـ ما حرفة الوالد ولا مؤاخذة ؟

رد الشاب وكأنه يناجى نفسه كأنما قد نسى أنه يحدث تاجر ممطوس الماضى . كان وهو يحاول الرد يشعر بأنه يقوم بموازنة بين سبيكة الذهب وبين جرعة الماء سر الحياة .. وهما الشيئان اللذان بحث الأعرابى فى الصحراء عن ثانيهما فوجد الأول فمات عطشا ، وهو لا يجد فى فمه ما يرمى به على هذا الذهب .

وأحس بأنه لو تكلم بملء حريته ـ كما تعود ـ لبلغ من الحماقة ما لا يطمع فيه أحد . كان فى يده قطعة من لباب الخبز يحولها إلى كرة مطواع صغيرة ، والصور الزيتية وخيالها فى المرآة ، والرجل نفسه أمام عينى الضيف . كان فى خياله أنه يوجه الحديث إلى ثلاثة بعضهم أشبه ببعض ، و لم تستطع الألوان الزاهية فى الصورتين أن تخلع خلابة على الوجه الضخم التقاطيع ولا الحاجبين الشاذين .

ولكن أحمد فكرى اعترته رقة الواعظ وتأثره حين يبدأ فى الموازنة بين الخير والشر ، فأجاب فى هدوء عجب له صديقه أمير :

ـ تسأل عن مهنة أبى ؟ إنها مهنة صغيرة لا تدر ربحا لكنها تحفظ علينا حياتنا .

ـ لكن لابد قد أعجبت السيد الوالد !

ـ هو يحبها جدا .. وحتى نحن أبناؤه .. نحبها مثله .

قال رب البيت :

ـ كثيرا من المهن لا يدر ربحا لكنها مهن محبوبة تخلق علاقات لا بأس

بها . لابد أن والدك محام فى زمن الاشتراكية ..

ابتسم الشاب ، وكأنما لذ له اللعب بهذا اللغز ، فرد فى لطف مستحثا رب الدار على مواصلة اللعبة :

ــ لا يا عمى ..

واستطرد رب الدار :

ــ أنت شاب لطيف تسلى ، ومع أمير الحق فى أن يحبك . لكن مهنة والدك حيرتنى .. آه .. لابد أنه سكرتير خاص لرئيس مجلس إدارة دخلهم صغير حقا ، إنما مركزهم كبير .

ــ لا يا عمى .

قال السيد محمد السلحدار :

ــ معك حق فهؤلاء الناس أعرفهم ؛ مهن صغيرة لكنها تشارك فى الأرباح .. أقصد أرباح الغير .

ــ إنك تاجر أسلحة يا سيدى ومهنة أبى ضد مهنتك ، أظن أن اللغز انحل !

أطرق أمير نحو المائدة وفتح الأب عينيه وسرح يفكر بصوت يسمع :

ــ ضد مهنتى ! .. ضد مهنتى ؟ (وأشار بكفه الغليظة) لا ترد أنت .. لا تتدخل .

وقال فى خجل مستتر : رجال الشرطة ليسوا ضد مهنتى إلا طائفة واحدة لا غير ... طائفة من الناس كل همهم فى الحياة بث الرعب فى قلوب الناس . هل عرفتهم يا سيد أحمد فكرى ؟

ــ لا ..

همس الرجل :

ـ هل رأيت ؟ واحدة بواحدة . انقلبت الآية .. تركتنى أول الأمر أبحث فجعلتك أنت الأن تبحث . ألم تعرف هذه الطائفة يا أمير ؟

فقال فى اقتضاب :

ـ لا يا أبى !

ـ أوه .. وقسم تاريخ ؟ ودكاترة .. تقولون عنهم لنا أنهم آلهة .. ماذا إذن تعرفون ؟ اسمعوا إذن : الطائفة التى أقصدها هى طائفة الوعاظ ! فهل والدك واعظ ؟

ـ لا يا عمى .

ـ إذن فمهنته ليست ضد مهنتى ؛ الوعاظ ورجال الشرطة هم وحدهم ربما استطاعوا باسم الدين أو القانون أن يفعلوا شيئا .. فقط لا غير .. (وسكت قليلا ثم استطرد هامسا) : أو لعل والدك يملك بنكا للدم ؟

قال أحمد فكرى فى نفسه : « حقيقة .. إن بضاعتك لا تروج إلا فى سوق الأخطاء . أنت ابن المهنة الشرعى ـــ وتمثال صغير لمؤسسات ليس عندنا منها » .

ثم رفع الابن صوته قائلا :

ـ أبى يا سيدى تاجر .. يبيع الكتب !

فغر الرجل فمه :

ـ الكتب ! الكتب ؟ .. آه .. الكتب مجلدة أو غير مجلدة لا يمكن أن تكون التجارة فيها مضادة للتجارة فى السلاح ! فلماذا اعتقدت ذلك ؟

أجاب الضيف مراوغا :

ـ لأنى أعتقد أن هناك فرقا كبيرا بين مخزن السلاح ومخزن الكتب .

مدد رب البيت رجليه تحت المائدة واسترخى بجسمه على كرسى العشاء وهز رأسه مستزيدا .. فاستطرد أحمد فكرى :

ـ وأنا لا أقصد الموازنة من ناحية الثمن ؛ لكن .. إذا تصورنا أن مخزن سلاح نهب ومخزن كتب نهب ، فإن الذين نهبوا الأول يسارعون إلى الجريمة أو الثأر ، أما الذين نهبوا الثانى فهم يحملون قناديل مسروقة .

بدا شىء من الاستخفاف على الوجه الصلد ، ولمعت عينا محمد السلحدار ببريق معدنى وحاصر الشاب بسؤاله :

ـ شىء واحد فقط لا غير أريد أن تجيبنى عنه ؛ هل تدافع عن نفسك بالكتاب إن لاقاك فى الظلام قاطع طريق ؟ كلمة واحدة فقط لا غير !

شعر أحمد فكرى بأن السؤال المغلوط إذا أجيب عنه إجابة صحيحة فإنها تكون خطأ ، فنظر إلى أمير صديقه وتبسم مستنجدا به ، لكن الشاب هز كتفيه وقال :

ـ إن أبى لم يسألنى ، هو يعرف كل آرائى فعليك أنت أن تجيب .

وكانت عينا الأب لا تزالان متربصتين فرد الضيف :

ـ الدفاع بالبندقية لا شك . لكن ليس قاطع الطريق هو الشخصية التى نلقاها دائما . فى الطريق نلقى العابرين .. هذه هى القاعدة .. والتاريخ و ...

ـ آ آ .. لا تعد للتاريخ ! التاريخ ميت .. التاريخ هو ما نعيشه ، وهو كذلك ما تدرسونه فى الكلية . وإن كنت تريد أن تعترض على قدرة قطاع الطريق فهم فى كل مكان .

ضحك الضيف وهمس :

ـ أبى تاجر كتب فقط لا ...

ـ أفهم قصدك ، إنه يتعامل مع ذوى القمصان والبنطلونات ، أما أنا فسأقول لك كلمة واحدة فقط لا غير .. اسمع يا أمير لا تكن شاردا .. الذئاب أقل عددا من الحملان .. لكن هل سمعتم عن جريمة وقعت من حمل نحو ذئب ؟ ها ها ها .. إلا ذلك الجبار الذى عكر الماء على الذئاب فى « الحكاية » . ونحن كنا كناس نعتبر حملانا وقاطع الطريق ذئب واحد ، لهذا فإن مخزن الأسلحة فى نظرى أهم من مخزن الكتب (ثم تأوه مرتاحا .. يبدو أن الطعام والنوم منحاه استرخاء كاملا ، وتمطى وأسبل عينيه وقال فى فتور يقظ) :

ـ قلت كلاما كثيرا لأنك أعجبتنى ، أنت شاب متحمس يا سيد أحمد فكرى ، وأود أن أرى « أمير » متحمسا مثلك ، لا أدرى بماذا يحلم ؟

تريدون أن ترتاحوا بلا شك فاصعدوا إلى حجرتكم .

وتبادلوا التحية . ولما خرج الشابان إلى فسحة البهو سمع أحمد فكرى صديقه وهو يتنفس الصعداء ، وتشابكت أذرعهما وهما يصعدان السلم فى الوقت الذى كان الغلام فيه يثب أمامهما ليوصلهما إلى المخادع ، وكان الضيف يقول فى نفسه : « ما أعظم الفرق بين الناس والمكان هنا وفى القاهرة ، عندنا وعندهم » ورفع صوته يقول لأمير :

ـ أبوك رجل ذكى .. حديثه يثير الخيال .

فضحك الابن بلا حماسة ومضى صديقه حتى أدخله مخدعا يطل على الحديقة ملأته رائحة الأزهار والماء والعشب والرخاء والليل .

فلما تمدد على فراشه ، وقبل أن يطفىء النور نظر فى الساعة فأدرك أن والده يكاد الآن أن يكون عائدا من المكتبة وينظر بعينيه المتعبتين فى عشائه ، ويتحسس بيده اليسرى ظهره بين حين وحين باحثا عن موضع الألم من صعوده على السلم الخشبى .

ظل خيال محمد السلحدار ملازما ذهن ضيفه طوال الليل ، وحتى الصباح لم ينفصل عنه أبدا إعجاب بما قد نكره ، وفحص لأبعاد نفس أغوارها لا تقبل الضوء . وكم تمنى أحمد فكرى ألا يكون هذا هو والد صديقه ، والسبب واحد وهو أن يلقاه مرة أخرى ويحدثه بلا احتشام ولا حرج ؛ فقد كان من طبيعة هذا الشاب أن ينازل النفوس التى يحس أن قواها كبيرة ، وقد فصل من المدرسة الثانوية ذات مرة لأنه ظل يجادل مدرس التاريخ ربع ساعة حول فكرة مصطفى كامل فى الجلاء « لا مفاوضة » إلا بعد الجلاء ، وكان المدرس ضدها وكان رجلا قوى الشكيمة عنيدا قارئا ، وكان أحمد فكرى معها ؛ ولما طال بينهما الجدل والطلبة منصتون كأنهم يشهدون مباراة قال المدرس للطالب :

ــ إذا كنت دائنا لرجل مفلس أو أكال حقوق ، فهل من الخير أن تأخذ بعض مالك حتى تناله بمرور الزمن ، أو تطالب به دفعة واحدة فلا تأخذ شيئا ؟

فقال أحمد فكرى فى استهزاء :

ــ التقسيط فى محلات القماش وليس فى ماء النيل يا أستاذ !

فضج التلاميذ بالضحك وسيق الطالب الذى اعتبر معتديا إلى الناظر وفصل أسبوعا ليتعلم كيف يسمع فقط ، لا كيف يتكلم ! لكنه عندما التقى بالمدرس فى الحوش قبل مغادرة المدرسة قال له وهو يبتسم :

ــ الدفع فورا ، ماء النيل لا يقبل التقسيط .

كان فى هذه اللحظة واقفا أمام مرآة كبيرة فى الحمام يحلق ذقنه . وأواخر فبراير .. ودفء .. ونسيم الشتاء البطىء يحمل روائح كل نوار الحقول .. دخلت من باب الحمام المفتوح فاختلط بالصابون المعطر .

حملق أحمد فكرى فى وجه نفسه : عيناه يقظتان ووجهه مهضوم ليس فيه ما يدل على حياة رخية إلا .. تفكيره .. غذاء إلهى .. ولو أنه مرتبط كالجسم بالغذاء العادى لبدا تفكيره فى شحوب وجهه ؛ لكنه إذا ابتسم أو مرح أو تراقص بدا غريب العذوبة .

والوقت لا يزال باكرا : الشمس تعطى أولى لمساتها للأرض ، والندى يترك الأغصان والأوراق إما إلى أعلى لتمتصه الشمس ، وإما إلى أسفل لتمتصه الأرض ..سكينة .. وأصوات حوافر الجياد وعربات الحنطور هى سيدة الموقف ، والسيارات الخاصة بلا أبواق لا داعى كثيرا .. وأفكار أحمد فكرى ثملة فوارة فى هذه اللحظات ، والقلب .. مفتوح المصراعين .. ففى .. الحقيقة والمحتوى .

وتأوه فى تلذذ وود لو أن « عزة » معه الآن حتى ولو كانت ضيفة على هذا الوحش .

وأحس باللذة والندم . إنه الآن يشتم مضيفه مع أن طعام العشاء لا يزال فى جوفه ، ومط شفته وهز كتفا .

وعادت « عزة » إلى خاطره ووجهها الأسمر وأنفها القصير وأسنانها الغريبة ذات الشخصية الفريدة . أسنانها .. ليست مثل اللؤلؤ ولا أزهار الأقحوان الأبيض ، بل هى غير منتظمة فى الطابور تحت الشفتين الغليظتين ، وضحكتها التى تروى الظمآن والتى أطلق عليها اسما كأنه اسم اللحن « عطشان يا صبايا » ، المتدفقة فى قصر تغريدة قصيرة وراء تغريدة قصيرة « آه . لو أنها هنا ، تلك المسكينة التى تحارب فى صمت وعبقرية حتى لا يبدو ثوبها قديما .. وأبوها ؟ .. وأبى ؟ .. والشخصيات المشدودة إلى السواقى تروى زرعا لا تأكله هى .. وهنا .. رأيت فتحة فم خلقت

للالتهام .. فـى وجـه السـيد السـلحدار .. وهـذه مرآتـه وفراشـه وأنـا فـى ضيافته . لكن .: ابنه .. أمير .. إنه رصاصة انفصلت من البندقيـة كمـا قـال أبوه بلا وراثة . وأمير حلو العشرة ولكنه ينام على الجنب الذى أرقدتـه عليـه الحياة لا يحاول أن ينقلب أو يتقلب . مع أن عصرنا أعطى العجائب ..

تقدما فى العلـم والخـوف ، وضرب الإيمـان . وكـاد يبنـى علـى أبـواب المعابد تماثيل للقلق ، جلاد الإيمان الحقيقى ..

ثم عاد أحمـد فكـرى إلى المخـدع لكـى يلبـس ملابسـه بانتظـار أن يـأتى صديقه ، وألقى نظرة على الحديقة والكلاب ، وصفر لها بـلا وعـى فنبحـت هناك . عندئذ أدرك أمير السلحدار أن صديقه واقف بالنـافذة فذهـب إليـه ، عليه « روب » شتوى من الصوف القيم ، وعلى وجهه الوسيم نضـارة مـن شبع نوما . سأله الضيف فى اشتياق :

ــ هل ستسعد برؤية الوالد على مائدة الإفطار ؟

فرد الابن بلهجة من يوارى ارتياحا :

ــ هل ستسعد برؤية الوالد على مائدة الإفطار ؟

فرد الابن بلهجة من يوارى ارتياحا :

ــ مع الأسف فإنه من عادته أن يخرج مبكرا فى بعض الأيام .

وساد صمت قصير عاد أحمد فكرى فيه إلى ذكريات أمس الغضة ، لكنه ما لبث أن سأل صديقه :

ــ هل يجد والدك وقتا للقراءة ؟!

فرد فى دهشة :

ــ لماذا ؟

ــ الجو هنا ملائم .

فقال فى إهمال :

ـ إنه لا يقرأ كثيرا ! لكن لماذا تفترض أن كل الناس يقرءون ! أو أنت ترى ذلك جديرا بأبى .

كانا فى اللحظة قد غادرا النافذة وجلسا على أريكة فى حجرة النوم ، وصمت أحمد فكرى قليلا ثم نظر مليا إلى أمير وهز رأسه وأخذ يصفر برقة ورفق ـ وعيناه شبه مسبلتين قليلا ـ لحن الحب الخاص به كأنه شعار برنامج إذاعى « عطشان يا صبايا » .

ولما فرغ الضيف من أحلامه رد الجواب :

ـ تسألنى لماذا أفترض أن كل الناس يقرءون ؟ افترضت ذلك فى السيد والدك لأننى دهشت لذكائه وجرأته .. إنه جدير بأن يجمع أكثر من هذه الثروة ، وإذا كنت الوريث الوحيد له فجدير بك أن تجمع شيئا آخر (وابتسم) لا تجمع المجموع يا أخى ، بل افعل هذا حيال شىء جديد .

وفى هذه اللحظة دخل الكهل والصبى كتابع ومتبوع معا .

وتقدم الكهل وأعلن أن المائدة جاهزة ، وخرج وجرى الغلام وراءه .

وسار أمير وضيفه يعبران الصالة العليا فقابلتهما سيدة عرف أحمد فكرى أنها ربة البيت ، بيضاء مصقولة مليئة الجسم ضعيفة البصر نوعا ، فحيت الضيف فى مودة عابرة مثل النسيم . ومن صفاء بشرتها أخذ ابنها لونه ، ولعلها هادئة شديدة الانقياد خصوصا إذا كانت عشيرة رجل مثل الذى صادفنا على مائدة العشاء .

* * *

وانقضت فترة الإفطار فى ثرثرة حلوة . ما لبث أمير أن أعلن لصديقه برنامج اليوم .. إنهم سيذهبون بعيدا بإحدى السيارات نحو العزب على

مقربة من مركز آخر وسيكون معهم تابع بالغداء والماء النظيف . ومع كل منهما بندقية صيد .. والشمس اليوم في عرشها الذهبي وليس في السماء سحاب . ستخرج الطيور في هذه المناطق لكي تغرد واقعة في حديقة الطبيعة التي أوهمتها بالربيع ، وفي خديعة أخرى وهي تغافل الصيادين المنتظرين ..

وراقت الفكرة لأحمد فكري . وساروا والتابع معهم يسوق السيارة ، وهناك تجلت الطبيعة بكرا لكنها عجفاء ، غير أن سدا من أشجار الجزورينا والكافور وسط كل هذا ، وكانت الطيور قد بنت على ذوائبه أعشاشا واتخذت منه وطنا فوقفوا هنا للصيد .

كانت أول طلقة من بندقية أمير السلحدار كأنها موجهة بالرادار فأسقطت يمامة ، أما صديقه فلم يوفق في بضع طلقات . وعاد أمير فسجل قدرته مرة أخرى إذ أسقط طائرا مجهول الاسم . ولذ للضيف أن يقنع صديقه بأن هذا الطائر إنما هو « كروان » ثم استطرد إذ انفتحت له نافذة الخيال قائلا :

ــ يمامة وكروان ؟ ! إن سلاحك غير عادل .. لو أن هنا بطا لكان ذلك معقولا . يمامة وكروان ! (وبدا يصفر لحنه المحبوب وعيناه ذابلتان كأنه مستغرب في لذة ، ثم استطرد قائلا) :

ــ اليمامة كائن مسالم ولو أن لحمه يؤكل ، والكروان .. حسن . ماذا تفعل في كائن لا يغرد إلا حبا ؟ ثم قل لي يا أمير .

ــ سأقول لك .

ــ من علمك إطلاق البندقية .. أبوك ؟

هز أمير رأسه في حرج ، ثم قال في هدوء وإهمال :

ـ أبى لا يملك وقتا لشيء ما غير عمله ، وقد علمنى أحد أتباعه .

كان أحمد فكرى قادرا على فهم لكنه ذلك لأمر لا يدريه أحس بلذة غامضة فى أن يحوم نحو الأب واستطرد :

ـ هل يمكنك أن تصيب صوت الكروان بالبندقية ؟ إنه أحد أوتار الطبيعة التى تعزف عليها ونحن نائمون .. نتقلب فى فراشنا فنتمتع ونحن فى نصف وعى ثم نستغرق فى النوم من جديد . ثم قل لى يا صديقى : هل يمكن ـ وأنت أدرى بالتجربة ـ أن نطلق الرصاص على الناس بنفس السهولة التى نطلقها بها على الطيور ؟

قال أمير السلحدار بعد إطراق طويل :

ـ الناس .. والطيور .. والماشية .. كلها سواء يا صديقى فى اللحظات التى تبدو الحياة فيها مثل الثوب لا يسع إلا واحدا فقط ، وثوب من قطعة واحدة بهذا الشرط . وعندما نذهب إلى الجندية قد تقوم الحرب ونتذكر موقف اليوم ونحن نطلق « الرش » على الطيور . والحرب يا صديقى قد تشنها فورة عقيدة لكن رحاها تدور بمجموعة من الغرائز والدفاع عن النفس وحب البقاء ، والحرب التى تشنها المطامع تدور رحاها بهذه المجموعة ويصبح صاحب العقيدة وصاحب المطامع ملكا للحرب بعد أول خطوة من خطاها . الرحب يا صديقى تعديل مسار الحياة عن طريق جسر الموت ، وجسر الموت هذا يبدو دائما قصيرا وذلك نتيجة خداع البصر والبصيرة لكى تقوم الحرب . ونحن حين نجند وتقوم الحرب فربما كنت أنت يابن بائع الكتب أكثر اندفاعا منى نحو زيادة عدد الموتى وأنا ابن تاجر السلاح ..

تذكر يا صديقى أنه الأنس البشرى هناك يلبس ثوبا مقلوبا . فنحن نأنس بالشوارع المأهولة والأضواء لكننا هناك نكون دائمى الطمأنينة ما دام

الرصاص يفرقع من أسلحتنا وعدد الموتى يتزايد فى الصف المقابل لنا والمقاتل لنا . لا تأسف على كروان أو يمامة ، لأننا كبشر نستعمل السلاح كما تستعمل العقرب ذنبها . ولعلك قرأت عن أحد الأدباء أنه حبس عقربا فى كوب من الزجاج وكان يتسلى بها كلما كان مأزوما . كانت تحاول الصعود إلى أعلى فينهكها الزجاج بملامسته فتسقط فى القاع الذى يكون الكاتب قد جهز فيه قطعة لينة من شيء يؤكل ، وعند ذلك تغرس فيه ذنبها ويرى السم وهو يلمع فى القاع بالكوب الصافى .

لم ينطق أحمد فكرى بحرف واحد .. كان يفكر فى كل ما قاله ابن تاجر السلاح ، وكان هو يحاول أن يبحث عن خط الحب الذى يحول الحياة إلى نوع آخر لا تسوده قعقعه الصلب . وتنهد وانصرف أمير السلحدار بعيدا عنه متربصا لصيد جديد ، وأخذ أحمد فكرى يردد قول صديقه : « الحرب تعديل مسار الحياة عن طريق جسر الموت » . ومصمص بشفتيه ثم أخذ يصفر لحنا حزينا . كان الصفير بالفم لغة من لغاته حين العبث .. والحب .. والقلق .. وعندما يقرأ كتابا جامعيا أو عاما ويعجبه شيء ما كان يقف ويصفر فى خفوت كأنه يتنفس فى صمت) . وسأل نفسه « لماذا لا تقوم بين دولة ودولة علاقات حب مثل ذلك الذى يقوم بين فرد وفرد ؟ » وهز رأسه صامتا وشهق وعاد يصفر ، وقال لنفسه : « كانت علاقات الغرام بين الدول قديما تتمثل فى المصاهرات الملكية أو الإمبراطورية ، وكانت الشعوب فى تلك العصور أنصاف عباد حتى حكوا الحكايات عن أن معظم ما كان يبدو نادرا كان يهدى للأباطرة كقرابين المعابد . و لم يأخذ الحب بين الدول صورة غرامية أعظم من هذا . وإذا ما

صادف وفشلت المصاهرة وشن الملوك الحرب بعضهم على بعض قعقع السلاح فى يد الشعوب كأنه لم يكن هناك قبلات ولا أحضان ولا ستائر ، ولذلك فإن السلاح قديم . وعندئذ عاودته كلمة قالها أمير له ذات ليلة فى القاهرة : أبى يتاجر فى أهم ما يهم الناس ! » .

علق أحمد فكرى بندقيته فى غصن شجرة ووضع كفيه فى جيبى بنطلونه وسار مطرقا يفحص الأرض ويكلم نفسه : « وأبى هذا تاجر الكتب . إنى أراه أعلى من ذلك منزلة من أى تاجر ، وإذا كان السيد السلحدار يسكن قصرا ذا حديقة فإن أسمال أبى ـ إن لم أكن متحيزا له ـ هى الزى الرسمى للذين عشقوا الحكمة .

وأبى ليس حكيما لكن نظرته إلى الدنيا تريحنى . وهناك فى حى القلعة مع كل المشدودين إلى السواقى ـ نسكن . ويعود إلينا أبى بعد الهزيع الأول من الليل وهو متعب ، قلبه ملىء بالحب وساقاه مليئتان بالألم لأن الوقوف طول النهار وصعود المنحدر بين مسجدى الرفاعى والسلطان سبب له ألما . ووجه أبى قادر على التعبير قدرتى على الصفير (وأخذ يصفر وهو يفكر) . وبجرعة من الحب يسقينا كل ليلة ولو لمدة دقائق . المهم أن نرى أسنانه الصناعية اللامعة ونتخيل من كثرة البشاشة أنها صيغت من اللؤلؤ . وفلسفة أبى عجيبة . كان يقول لنا دائما : « إذا كان سرك مثل علتك فلا تخف أحدا » . وأحسن سلاح تعلقه على كتفك ثقة الناس أنك قادر على الاستغناء عما يذلك .

مكتبة مصر

سعيد جودة السحار وشركاه

تقدم قائمة بمؤلفات عمالقة القصة المصرية

الأستاذ : محمد عبد الحليم عبد اللّه

فهرست